الأَسرُ في الشعر (حتى آخرِ العصر الأموي)*

محمد بن سليمان السديس**

* لا يتطرق هذا البحث إلى أَسْر النساء لأن الكاتب أفرده، لِتَرَائه، ببحث مستقلٍّ سينشر، إن شاء الله، في مجلة (العُصُور) التي تصدر عن (دار المَرِّيخ) في الرياض، وعنوانه (سَبْي النساء كما يصوّره الشعر القديم).

** حصل على الدكتوراه في الأدب العربي القديم عام ١٩٧٦م من جامعة ليدز ـ المملكة المتحدة.
يعمل أستاذاً مشاركاً بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود.

الملخص

في الشِّعر العَرَبيِّ القَدِيم، ولا سِيَّمَا شِعْرَ الأَيَّام والحُرُوب، والشِّعر المُعْلِي من شأن الفَعَالِ والأمجادِ في سِياق الثَّناءِ أو الافتخار، والمُزْرِي بالمعايبِ والنقائص في سياق الهَجْوِ، مُعَالَجَةٌ، إنْ باقْتِضَابٍ وإنْ بِشَكْلٍ ذي بَسْطٍ وتَفْصِيلٍ، لِجَانِبٍ أو آخَرَ من أَحْوَالِ الأَسْرِ والأَسْرَىٰ.

وهذه الورقة مَسْعَىٰ واحدٌ ضمن مساعٍ عِدَّةٍ متجهةٍ نحو دَرْس قدرٍ من ذلك الشعر، مما أُبْدِع قبل الإسلام وبعده حتى آخر العصر الأموي، واستقرائِهِ واستنطاقِهِ، وسَبْرِ أَغْوَارِه، من أجل الوقوف على جَلِيَّةِ الأمر، أو ما هو دانٍ من جَلِيَّتِهِ، عن عددٍ من المسائل أو (الإشكاليّات) ذاتِ الصِّلَةِ بالأسر، في ضوءِ مضامينِ ذلك الشِّعر، وأبرزها:

١ ـ النّظرة العامَّة السَّائدة في المجتمع العربيِّ القديم الذي أُنتج فيه ذلك الشعر خلال الأمد المحدَّد آنفاً عن أسر العدوّ، وفي الوقت نفسه، كيف كان ينظر، من ناحيةٍ أخرى، إلى غير القادرين على أسرِ أعدائهم؟

٢ ـ كيف كان ينظر في ذلك الوسط الاجتماعي إلى من يقع في الأسر أيُعْذَرُ أم يُعْذَل؟

٣ ـ مدى عُمْقِ الإحْسَاسِ بالمعاناةِ في شعرِ الأسرى.

٤ ـ الموقفُ العامُّ من فَكِّ الأَسْرَىٰ أو فِدَائِهِم؟

٥ ـ كيف كانت معاملةُ الأسرى؟

٦ ـ مدى فشوِّ أَبْشَعِ ظواهرِ التَّعَامُلِ مع الأسير، أي سَفْكِ دَمِه؟ وكيف كان (الاعتبار) العامُّ والخاصُّ لمرتكب تلك الممارسة في المعيار الخلقيّ الاجتماعي؟

والغاية من هذا المسعى البحثي إنما هي الاستضاءة بالشعر من أجل تحديد معالم صور الأسر والأسرى وكثير من أحوالهم وما له بهم مساس. فهو لا يرمي إلى عدّ الشعر، وإن كان «ديوان العرب» كما وُصِف يوماً، وثيقةً تاريخيّةً لا يسري إليها كَبيرُ شكٍّ.

النظرة إلى الأسر عند العرب قديماً

من الطبيعي أن يسعدَ المحارِبُ بانتصاره على عدوِّه، وجنْيِ ثمارِ هذا الانتصار، ومنها أسر أكبر عدد من رجاله، وهو ما عدَّه أكثم بن صيفي أشهر حكماء العرب قبل الإسلام «أَهْنَأَ الظَّفَر»[1]. ذلك لأن كثرتهم أمارةٌ على تفوُّق الآسر التام على عدوه، وهزْمِهِ له هزماً لا مرية فيه. ولهذا زخر القصيد العربي القديم بغناء ما أنجزه أقوام منتجيه من مفاخر في هذا الاتجاه، وبالثناء على من يأسر مناوئيه، ويسبي نسوانهم وذراريهم، وبهجاء من لا يقوى على صدِّ آسر:

أَسَرْنا مِنْهُمُ تِسْعِينَ كَهْلاً نَقُودُهُمُ على وَضَحِ الطَّرِيقِ[2]

وَينِمُّ الشعر، كما سيتجلى، عن حرصٍ خاصٍّ على أسر العظماء وذوي الشأن من الرّجالِ من ملوكٍ وَسَادةٍ وقادةٍ وفرسانٍ، لأنَّ آسِرَهم كثيراً ما جمع بين حُسْنَيَين: ثَوَابٍ ماليٍّ سنيٍّ لأن فداءهم يكون أثْمَنَ من فداء السُّوَقة، كما سيأتي، وثوابٍ معنوي متمثل في الصِّيت الحسن لتمكنه من تحقيق هذه المفخرة. وإن أخْطَاهُ أحَدُ الفضلين لم يُخْطِئه الآخَر.

إن مما دعا الآسرين إلى الإكثار من الفخر بأسر السادة وعلية القوم والفرسان أن التمكن من أسرهم مهمة أشقُّ وأكثر تحدّياً من أسر غيرهم، فالدُّنُوُّ منهم من العُسْرِ بمكانٍ، فما بالك بقهرهم لما يتصفون به من مَنَعَةٍ أو بسالةٍ، أو لما يتوفر لهم عادةً من حماية لا تتوفر لغيرهم، فمن يغلبهم حَرِيٌّ بأن يكون لِمَنْ سواهُمْ أَغْلَب.

وأول ما يتبادر إلى الذهن من تمجيدٍ لهذا الضرب من الأسر افتخار عمرو بن كلثوم، ضمن فخره الكثير في قصيدته النونية المعروفة، بعودة قومه بالملوك مقيدين، بينما رضي أضدادُهم بالسِّباء والغنائم. ومنه تباهِي عتيبةَ بنِ الحارثِ بن شهابٍ بأسره بَسْطامَ بنَ قيس الشيباني، وبأنه ثوى لديه طَوَال أشهر القيظ مكبَّلاً، لسلاسِلِ الحديد في يديه وساقيه رَنِينٌ، فهي تعزف له أنغاماً موسيقية شجية:

أبلغ سَرَاة بني شيبان مَأْلُكَةً أَنِّي أَبَأْتُ بعبدِ اللَّهِ بَسْطَاما

قاظ الشَّرَبَّةَ في قيدٍ وسِلسِلَةٍ صوت الحديد يُغَنِّيهِ إذا قاما[3]

ولما أسر بنو كلب، بعد معركة خاضوها مع تغلب، سيِّدَي تغلب الشهيرين كليباً وأخاه مهلهلاً وسادةً تغلبيين آخرين انبرى سيدهم زهير بن جناب يفتخر، بجدارة، بهذا الفعل الكبير، وأخذ يتشفى من عدوٍّ قومه، ويعيرهم بأسر سادتهم، وفرار مقاتلتهم.. فمهلهل ألفى نفسه مكبَّلاً بالسلاسل يستنجد فلا يُنْجَد، بل يفرّ الجمع عنه، ويَدَعُونَه يقاسي ذل الأسر وقهْرَهُ، كما يقاسي من الجوع حتى إنه ليظل يشق حَدَجَ الحنظل ليأكل ما بها من هبيد (بزر الحنظل):

* إذ أَسَرْنا مُهَلْهِلاً وأخَاهُ ... وابْنَ عمرٍو في القِدِّ وابْنَ شِهابِ
يوم يدعو مُهَلْهِلٌ: يا لَبَكْرٍ ... ها أَهٰذِي حفيظةُ الأنْسَابِ[٤]؟
* لحقت أوائلُ خيلِنا سَرَعانَهُمْ ... حتى أَسَرْن على الحُبَيِّ مُهَلْهِلا
إنَّا، مُهَلْهِلَ، ما تطيش رِماحُنَا ... أيام تَنْقُفُ في يديك الحَنْظَلا
ولّت حُمَاتك هاربين من الوغى ... وَبقِيتَ في حَلَقِ الحديد مُكبَّلا
فلئن قُهِرْتَ لقد أَسَرْتُكَ عُنْوَةً ... ولئن قُتُلْتَ لقد تكون مؤمَّلا[٥]

والفخر بأسر الملوك والسادة كثير في الشعر الجاهلي[٦].

وفي شعر جرير (توظيف) مكثف لفكرة «أسر السيد المطاع، أو الرئيس، أو الملك»، هذه في خدمة فخر الشاعر بقومه بني يربوع، فدأبهم أسر الفرسان والملوك الجبارين وتقييدهم وتركهم يجرون الأصفاد والسلاسل التي لا يستطيعون لها نزعاً، ويتجرعون كؤوس الألم مما تُلْحِقُه بأيديهم وأرجلهم من كلوم. فهم (يسلبونهم تيجانهم)، ويردونهم من سُكْرِ السلطان إلى صحوة الصَّغار:

* منَّا فوارِسُ مَنْعِجٍ، وفَوَارسٌ ... شَدُّوا وَثَاقَ الحَوْفَزَانِ بِأُودَا
فَلَرُبَّ جَبَّارٍ قَصَرْنا عَنْوَةً ... ملكٌ يَجُرُّ سلاسلاً وقُيُودا[٧]
* وكُنَّا إذا سِرْنا لِحَيٍّ بِأَرْضِهِمْ ... تركناهُمُ قتلى وفَلاًّ مُشَرَّدا
وَمُكْتَبِلاً في القِدِّ ليس بِنَازِعٍ ... له من مِراسِ القِدِّ رِجْلاً ولا يدا
وإني لَتَبْتَزُّ الرئيسَ فوارسي ... إذا كلُّ عجعاجٍ من الخُورِ عرَّدا[٨]

ويعدد أسماء الأبطال والفرسان والسادة المشاهير الذين أسرهم قومه، وهو

قد يريد بقومه يربوعاً، وربما أراد تميماً، على أنها تجمع قِرْنَه الفرزدقَ معه، لكنه يشاء الاستئثار بأمجادها وفَعَالها دونه، وأن ينسلَّ من معائبها ويرمي خصمه بها، حتى إنه افتخر بأسر رجلٍ مجاشِعِيٍّ من قوم الفرزدق لأحد الفرسان (الصِّمَّة الجُشَمي). إنه يذكر أَسر بني يربوع في (يوم الغبيط) لهانىء بن قبيصة الشيباني الذي عضَّ به قيد الحديد لدى قوم جرير طِوال الصيف والربيع، ولِبَسْطام بن قيس الذي ظل لديهم يأكل الحديدُ والقِدُّ ساعديه وساقيه عاماً تامّاً، ولقابوس وحسَّانَ ابني المنذر (يوم طِخْفِة)، وليزيد بن الصَّعِق الذي أسرته يربوع (يوم ذي نَجَب)، وللصِّمَّة الجُشَمي الذي أسره الحارث بن بَيْبَة المجاشعي، ويكرر الفخر بلا سأم بأسرهم الهذيلَ بن هبيرةَ التغلبيَّ في (يوم ذي بَهْدَىٰ). وهو في هذا التعداد يباهي الفرزدق والأخطل بسطوة قومه، وتميزهم بالمنعة والإقدام مما مكنهم من الهيمنة على زعماء القبائل الأخر وسادتها، وإذاقتهم طعم العبودية والهوان والرَّسْف في القيود:

* دعا هانىءٌ بكْراً وقد عضَّ هانئاً ... عُرَى الكَبْلِ فينا الضَّيْفَ والمُتَرَبَّعَا
وقابوس أعْضَضْنَا الحدِيدَ ابْنَ مُنْذِرٍ ... وحَسَّانَ إذ لا يَدْفَعُ الذُّلَّ مَدْفَعا[٩]
* حوت هانئاً يوم الغَبِيطينِ خَيْلُنا ... وأدركن بَسْطاماً وهنَّ شَوازِبُ[١٠]
* وَعَضَّ ابْنَ ذِي الجَدَّيْنِ حولَ بيوتِنا ... سلاسِلُهُ والقِدُّ حولاً مُجَرَّما[١١]
* ونحن صَدَعْنا هامَةَ ابْنِ خُوَيْلَدٍ ... على حَيْثُ تَسْتَسْقِيهِ أُمُّ الجَوَائِمِ
ونحن ضَرَبْنا هامَةَ ابْنِ مُحَرِّقٍ ... كذلك نَعْصَىٰ بِالسُّيوفِ الصَّوَارِمِ
ونحن ضَرَبْنَا جَارَ بَيْبَةَ فانْتَهَىٰ ... إلى خَسْفِ مَحْكُومٍ له الضَّيْمُ رَاغِمِ[١٢]
* قادوا الْهُذَيْلَ بذي بَهْدَىٰ، وهم رجعوا ... يَوْمَ الغِبيطِ بِبِشْرٍ وَهُوَ مَغْلُولُ[١٣]
* ماذا ذَكَرْتَ من الهُذَيْل وقد شَتَا ... فينا الْهُذَيْلُ وفي شَوَاهُ كُبُولُ[١٤]

على أنّ أسْرَ العَدُوِّ، وإن لم يكونوا من علية القوم، مفخرةٌ ليس يكِلُّ الشعراء من الافتخار والمدح بها، ذلك أنه إن كان في سفك دمهم في الميدان خَضْدٌ لشوكتهم وإيهانٌ لركنهم، أو استئصال لشأفتهم، وتمكينٌ للظافر في الأرض، وتثبيتٌ له، وردٌّ لكيد عدوِّه، ففي الأسر ما أسلفنا الإلماحَ إليه

من شرفٍ باذخٍ، إذ يبْرِز سطوة المنتصر وسلطانه، وظهورَهُ على عدوِّه، ومن مغنمٍ جَزْلٍ ربما ردَّهُ من ذويَ اليَسَارِ التَّامِّ، وأذهب عنه حال البؤس وضيق ذات اليدِ.

فلا عجب أن حفل الشعر بالمباهاةِ بالإكثارِ من أسر الأعداء، وأن عَدَّ القدرة على الأسر إحدى أبرز النعوت الحسنى التي تُضْفَى على الممدوح، وعَدَّ العجز عن دحر العدوِّ وإذاقته طعم الأسر سُبَّةً يوصم بها المهجوُّون. فخيل قوم الشاعر تغير على العدو في الصباح الباكر (تُصَبِّحُهُم)، في الغالب، لتفاجئهم (أي تحقق عنصر المفاجأة كما يقال الآن)، فتظل تصول وتجول في حيهم تجمع الأسرى وتحوي المال:

صَبَحْنَاهُمُ بِالْجِنْوِ خَيْلاً مُغِيرَةً فما برحت تَحْوِي الأُسَارَى وتَسْلُبُ[١٥]

أو يوصف الأعداء المغار عليهم بأنهم كانوا نهباً للمغيرين (قومِ الشاعر) تقاسموه بينهم، وجاؤوا بهم مربَّطين إلى المطايا، تسير بهم كيفما شاءت، لا يستطيعون حيلةً، بل كانوا مذعنين منقادين يحثون الخطى لمجاراتها، وقيدهم المشدود شدّاً محكماً يؤلمهم، ونساؤهم يسوقهن الرعاةُ والأُجَرَاء سَوْقاً فلا ينقطع عويلهن ونُواحهن:

أَخَذْنَاكُمُ يوم المَجَرِّ فكُنْتُمُ نِهاباً وسَبْياً بَيْنَنَا مُتَقَسَّمَا

. . . .

ورُحْتُمْ بِأَعْضَادِ المَطَايَا جَنَابَنا تَشَكَّوْنَ مَصْحُوباً من القِدِّ مُحْكَما

تسوق عَضَارِيطُ الرِّكابِ نساءَكُمْ وقد غادروا مِنهُنَّ نَوْحاً ومَأْتَمَا[١٦]

ومن أساليب الشعراء القدامى، حيث يتحدثون عن صنيع قومهم بعدُوِّهم، أن يذكروا أنهم تركوهم أقساماً ثلاثة: صريعٌ يتشحط في دمه، وأسيرٌ ينوء بأغلاله إلى أن يفديَ نفسه بماله أو يفْتَدِيَهُ قومه، ومنونٌ عليه مُقِرٌّ بفضل آسريه. أو أن الأعداء باتوا بين قتيلٍ وشريدٍ ومكتوفٍ:

*** فَهُمُ ثلاثَةُ أفْرِقَاءَ: فَسَابِحٌ في الرُّمْح يَعْثُرُ في النَّجِيعِ الأَحْمَرِ**

وَمُـكَـبَّـلٌ يُـفْـدَىٰ بِـوَافِـرِ مـالِـه إن كـان صَـاحِـبَ هَـجْـمـةٍ أو أَيْـصُـرِ

أو بـيـن مَـمْـنـونٍ عـلـيـه وقـومِـهِ إن كان شاكِرَها وإن لـم يَشْكُرِ[١٧]

* فلـمْ تَرَ منهمْ غَيْرَ كابٍ لِوَجْهِهِ وآخَـرَ مـغـلـولٍ، وآخَـرَ يَـهْـرُبُ[١٨]

وقد عدَّ الراغب الأصبهاني (ت سنة ٥٠٢هـ) هذا التقسيم للأعداء المهزومين مما ينبغي أن يسير عليه الناعت لحال المنتصرين في الحرب وما فعلوه بِعدُوِّهم. قال: «تقول: خلَّف الجموع بين صريعٍ مقتول، وأسيرٍ مكبول، ومستأمن مقبول. وصاروا بين قتيل مُرَمَّل، وأسير مُكبَّل، ونازعٍ مُزْهَق، وعان مُوثَق... اقْتَسَمُوا بين قتلى حتى أجرى منهم جداول، وأسرى مُلِيءَ منهم الكبول والحبائل... قسمهم بين قتلٍ محقهم، وأسرٍ أوثقهم، واستئمانٍ اسْتَرَقَّهم»[١٩].

ولأن حدِيثَ الشِّعْرِ عن الأسر ربما صدر، والسيوف تَنْطِفُ من دماءِ الأعداء، فلا غرابة في اتسامه بروح التَّشَفّي من الخصم المهزوم، والتلذذ بمأساته، وبغياب عاطفة الإشفاق على الخاسر عنه، كأن يبدي الشاعر ابتهاجه برؤية بعض المقاتلين من عدو قومه في ساحة القتال قتلى [كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة]، والطير تقتلع أعينهم، ورؤية البعض الآخر يقادون بالسلاسل، مضطربي المشية متمايلين، وقد ساءت حالهم، واسودّت وجوههم، فكأنهم جِمالٌ جُرْبٌ قد طُلِيَتْ بِقَطِرانٍ ليذهب جَرَبُها:

* فَأَقْرَرْتُ عيني حين ظلُّوا كأَنَّهُمْ بـبـطـن الإيـادِ خُـشْـبُ أَثْـلٍ مُـنَـضَّـدُ

صـريـعٌ عـلـيـه الـطَّـيْـرُ تَـنْـتَـخُ عَـيْنَهُ وآخَـرُ مَـكْـبُـولٌ يَـمِـيـل مُـقَـيَّـدُ[٢٠]

* فـأُبْـنَـا بـالـنِّـهـابِ وبـالـسَّـبـايـا وبـالأسـرى تُـقَـوَّدُ فـي الـغِـلالِ[٢١]

* يَمْشُونَ فـي حَلَقِ الْـحَدِيدِ كأَنَّهُمْ جُـرْبُ الـجِـمالِ طُلِين بالقَطْرَان[٢٢]

وقد لا يكفيه التحدث عن تمكن قومه من أسر عدوّهم، حتى يخصّ بعضهم بأسمائهم، ويتشفى بما قاسَوْهُ في الأسر من قَوْدٍ وتصفيدٍ وإِذْلال:

وحُـمْـرَانُ أَدَّتْـهُ إِلـيـنا رمـاحُـنَـا ونـازَع غُـلاًّ فـي ذراعَـيْـهِ أَسْـمَـرَا

وَجَـثَّـامَـةُ الـذُّهْـلِـيُّ قُـدْنَـاهُ عَـنْـوَةً إلـى الْـحَيِّ مصفودَ الْـيَدَيْنِ مُكَفَّرا(٢٣)

وربما تحدث عن حشدِ الأسرى وجمعِهِم جماعاتٍ وقوفاً لتصفيدهم، وهم على هذه الحال، لإشعارهم بالعبودية، وبِسَطْوَةِ آسِريهم:

وَصَـفَّـدْنَـاهُـمُ عُـصَـبـاً قِـيـامـا(٢٤)

وعن بُدُوِّ الذِّلَّة والخضوع على الأسرى أمام سلطان الآسرين:

وفـاضَـتْ مـنـهُـمُ فـينا أُسَـارَىٰ لـديـنـا مـنـهُـمُ مُـتَـخَـشِّـعِـينا(٢٥)

والواقع أن أسر الأعداء مدعاة للفخر، كما إنه ممدحة تكثر نسبتها للمدوحين والمرثِيِّين، ففيه للآسر وقومِهِ شرف بقدر ما فيه من عار على الأسير وقومه. على أن الأسر ربما عاد على الآسِر بالخزي حين يتعدى الحَدَّ فيأسر من ليس له أن يأسره كالحليف والجار، وإن كان حبل الحلف أو الجوار بين قومي الرجلين بطبيعة الحال، فإن ذلك معدود نقضاً للجوار شائناً، وخَيْساً بالعهد، وغدراً مُخْزياً جالباً لمذمة الخلق شعراءَ وغيرِ شعراء.

وقد استحق عتيبةُ بنُ الحارثِ بن شهابٍ فارسُ تميم قبل الإسلام الملقَّبُ بـ (صيَّاد الفوارس) و (سَمِّ الفرسان)، مثل هذه المذمّة لأسره أنس بن مرّة السّلمي، وكان بين قومه وتميم جوار، فانبرى له ابن أخٍ لأَنَسَ هو الصحابي الفارس عباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه، وقيل إنّ من انبرى له أَنَسُ بن عباس، فاستشنع غدر عتيبة الذي جلل قومه حَنْظَلَة عار الخيانة والفعل القبيح، ونعته بأنه دنس نفسه في آخر عمره بأسره أَنَسَ، وتهكم بقوم الآسر، ورهطُ المرءِ في عُرْفِ الجاهلية، يَزِرُون وِزْرَهُ، وطلب منهم التنحي بعيداً عن مقام الأعراب النبلاء فليسوا بمعدودين منهم، وأن يَغُطُّوا في نومهم، فما هم لِسِوَي النَّوْم بفاعلين فِعْلاً جميلاً:

أَبْـلِـغْ سَـرَاةَ بـنـي شـهـابٍ كُـلَّـهـا وذوي الـمَـثَـالَـةِ مـن بـنـي عَـتَّـابِ

كَـثُـرَ الـضِّـجَـاجُ ومـا مُـنِـيـتُ بِـغـادِرٍ كـعُـتَـيْـبَـةَ بْـنِ الْـحَـارِثِ بْـنِ شِـهـابِ

جَـلَّـلْـتَ حَـنْـظَـلَـةَ الـمَـخَـانَـةَ والْـخَـنَـا ودَنَـسْـتَ آخِـرَ هٰـذِهِ الأَحْـقَـابِ

وأَسَـرْتُمُ أَنَـسـاً فـمـا حـاوَلْـتُـمُ بـإِسـارِ جـارِكُـمُ بَـنـي الـمِـيـقَـابِ

فُخُوا بَأَطْرَافِ الأُنُوف وأمْهِلُوا عنكُمْ قَوادِمَ صِرْمَةِ الأَعْرَابِ[٢٦]

بل إن عتيبة أضحى مضربَ مثلٍ في الغدر[٢٧].

الذَّمُّ بالوقوع في الأسر

إن الوقوع في الأسر، كما ألمحنا قريباً، لمِمَّا يُعَابُ به لأنه أَمارة على وهن أو جبن. ولربما بقي الأثر المعنوي السلبي لوقوع الرجل أسيراً أمداً طويلاً بعد فكّ أسره، فعَقِيل بن عُلَّفَةَ (ت نحو سنة ١٠٠هـ)، مثلاً استنكف أن يُنْكِح ابنته واليَ المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك عثمانَ بْنَ حيّانَ المُرِّيَّ (ت سنة ١٥٠هـ)، لأنه قد «مَسَّهُ» أو «مَسَّ أَباهُ أَسْرٌ»[٢٨]. على أنه يحسن الاستدراك بأن الأحرى ألا يبلغ الأمر هذه الغاية، في غالب الأحوال، فما الناسُ كلهم كعقيل في النزوع إلى التشدد المفرط في توخي الأصهار، وما له مساس بالحُرَم، ولما كان عليه من عُجْب بالنفس وعنجهيةٍ أعرابية. وقد بلغ من تعاليه على عثمان هذا أن قال له، لما خطب إليه ابنته: «أناقتي أصلحك الله؟» فأعاد عليه الأمير القول، لظنّه أن سمعه خانه، فَرَدَّ بما ردَّ به أول مرة، فوبّخه وأخرجه من مجلسه[٢٩].

وقد اعتاد الشعراء على تعيير خصومهم بما جرى لأقوامهم من أسر. فعيّر جرير مجاشعا بأسر بني جعفر بن كلاب من بني عامر سيّدهم معبد بن زرارة يوم (رحرحان)، ورماهم بالجبن عنهم، واتّهمهم بأنّهم أسلموه وتخلّوا عنه. كما عيّرهم باضطرارهم إلى النزول عن حكم أُسَيْدةَ أمِّ مالك ذي الرقيبة الذي أَسَرَ في يوم (شِعْبَ جَبَلَةَ) سيِّدَهُم الآخر الذائع الصيت حاجبَ بْنَ زرارةَ أخا مَعْبَد، وإعطائها ما طلبت من فداء، وعرَّض بهم قائلاً: «لسنا نحن الذين أعطينا أسيدة ما حكمت به لأسيرٍ قد غُلَّ في الأصفاد»!

وقد كرّر تعييرهم بإسلامهم سيِّدَيْهم هذين، وعدم دفعهم عنهما، فوقعا في الأسر، وذاقا أوجاع الأغلال والسلاسل:

* **وعرَّدْتُمُ عن جعفرٍ يوم مَعْبَدٍ فأُسْلِمَ، والْقَلْحَاءُ عانٍ أَسِيرُها**[٣٠]
* **وما نحن أَعْطَيْنَا أُسَيْدَةَ حُكْمَهَا لِعانٍ أَعَضَّتْ في الحديد سلاسِلُهْ**[٣١]

* وأَسْلَمْتُمُ لابْنَيْ أُسَيْدَةَ حاجِباً ولاقى لَقِيطٌ حَتْفَهُ فَتَقَطَّرَا
وأَسْلَمَتِ الْقَلْحَاءُ لِلْقَوْمِ مَعْبَداً يُجَاذِبُ مَخْمُوساً من الْقِدِّ أَسْمَرَا[٣٢]
* وَكُبِّلَ حاجب بِشَمَامٍ حولا فحكّم ذا الرُّقَيْبَةِ وهو عانِي[٣٣]

وعاج عليهم عَوْجَةً أخرى من عَوْجَاتِه العِنَافِ، وغلا في عيبهم بكثرة وقوع رجالهم في الأسر، فتحدَّاهم أن يذكروا يوماً واحداً من أيام العرب لم يؤسروا فيه فيُقْرَنوا بالحِبَالِ كما تُقْرَنُ الإبل، وراح يعدِّد الأيام التي أُسِر منهم فيها رجال، كيوم (الصَّفا) حيث أَسَرَهُم بنو عامر، كما أسرهم (اللَّهازِم) في يوم آخر. ورماهم بالخَوَر وعدم الحفاظ عند اللقاء، والتخلِّي عن إخوتهم للعدوِّ يوثقونهم بالأغلال، ويذيقونهم هوان الأسر، وخصَّ بالذِّكر من أولئك الإخوة معبد بن زرارة كَرَّةً أخرى، ورجلاً يدعى (مَزَاداً). وزعم أن هذا شأنهم مع كل من يقع منهم في الأسر، ونعتهم بهوان الجانب فلا يحمون جاراً كما يفعل القوم الأَعِزَّة المرهوبو الجانب، فجارهم ذليل غير ممتنع على من يؤذيه:

* وفي أيِّ يومٍ فاضِحٍ لم تُقَرَّنُوا أُسارَىٰ كَتَقْرِينِ البِكارِ المَقَاحِمِ؟
ويوم الصَّفا كُنْتُمْ عَبِيداً لِعَامِرٍ وبالحَزْنِ أصبحتُمْ عَبِيدَ اللَّهازِمِ

. . . . . .

تركتمْ أبا القعقاع في الغُلِّ مَعْبداً وأيَّ أخ لم تُسلموا لِلأَدَاهِمِ؟
تركتمْ مزاداً عند عوفٍ يقودُهُ بِذِمَّةِ مَخْذُولٍ على الدَّيْنِ غَارِمِ[٣٤]
* وفي أيِّ يومٍ لم تُساقوا غَنِيمَةً؟ وجارُكُمُ فَقْعٌ يُحَالِفُ قَرْقَرَا[٣٥]

وهم، حسب زعمه، من ناحية أخرى، على كثرة أسر سواهم إياهم، أجبنُ وأضعفُ من أن يتمكنوا، ولو مرةً واحدة، من أسر أحد:

إنَّا لَنَعْلَمُ ما غدا لِمُجَاشِعٍ وَفْدٌ، وما مَلَكُوا وَثَاقَ أَسِيرِ[٣٦]

معاملة الأسرى

يبدو الأسير، كما يصوّره الشعر، مقيداً دائماً بضروبٍ من قيودٍ وأصفاد،

فبقيدٍ من جِلدٍ تارةً، وبِحَبْلٍ أو سلسلةٍ من حديد تارة أخرى، وتارة بهذه وتلك معاً[٣٧]. فالتصفيد مرتبطٌ بالأسر ملازم للأسير. وكثير من الآسرين يتجاوزون القصد في شدِّ وَثاق أسراهم خشية فرارهم، أو لغلظ قلوبهم. وربما ترك الآسِرُ أسيره مدة ينوء بأغلاله الثقال القباح. وقد مكث قيسبة السكوني، مثلاً، ثلاث سنوات مغلولاً[٣٨].

وإنه، وإن لم يك غريباً، أن يُقَيَّد الأَسير لئلا يفرَّ، فيظَلُّ مصَفَّدَ القدمين أو موثق اليدين، أو مكتوفاً أمداً يطول ويقصر، إذ لا معتقلات مبنية يحتجز فيها الأسرى دون تعريضهم لأذى التقييد، فإنّ مما يُلْحَظ أن شعر المُبَاهِين بأسر عدوِّهم يعزف على الوتر الذي عزف عليه ابن كلثوم في بيته الأشهر الذي باهي فيه بأسر قومه الملوك وتصفيدهم. فلم يك نعتهم لحال الأسر للتألم مما حلَّ به، أو الحَدَب عليه، أو تصوير معاناته تصويراً راثِياً له، عاطفاً عليه، بل كان نعتاً غايته إبرازُ عُلُوِّ يد الشاعر وقومه، وتمكنهم من إخضاع خصمهم، وخضد شوكته، برغم سطوته وجبروته:

* ونحن أَسَرْنا حاتِماً وابْنَ ظالِمٍ فَكُلٌّ ثوى في قيدِنا وهو يَخْشَعُ[٣٩]
* نحن رَدَدْنا ابْنَ الْهُذَيْلِ لِقَوْمِهِ به أَثَرُ الأَغْلالِ تَدْمَى مَناكِبُهْ[٤٠]
* وجثَّامةُ الذُّهْلِيُّ قُدْنَاهُ عُنْوَةً إلى الحَيِّ مَصْفُودَ الْيَدَيْنِ مُفَكِّرا[٤١]
* ألا رُبَّ جَبَّارٍ سَلَبْنَاهُ تاجَهُ فأَصْبَحَ فينا عانِياً يَشْتَكِي الْكَبَلا[٤٢]

أو نعتاً يَلْتَذُّ فيه الناعت بالحديث عن تضرع أسير قومه في القيد، وعما قد يكون أصابه من كِلام، وعن لبثه فيهم زمناً طويلاً يعاني آلام الأغلال، وربما كان للمنافسة بين الشاعر وأنداده من الشعراء من قوم الأسير أثرٌ في هذا التلذذ بمعاناة الأسير إذ يريد أن يغيظهم بذلك:

* ضَغَا في القِدِّ آدَرُ تغلبيّ ضَبيحَ الجِلْدِ من أثر الكُلُومِ[٤٣]
* ماذا ذَكَرْتَ من الهذيل، وقد شتا فينا الهذيلُ وفي شَوَاهُ كُبُولُ[٤٤]

هذا، والفخر والمدح بِغَلِّ الأسرى وتصفيدهم معنى كثير الدوران على ألسنة الشعراء[٤٥]، وربما ظل الأسير حيناً من الدهر ثاوياً في القوم الآسرين، وأبطأ

قومه في القدوم إليه وفدائه، حتى تضاءل أمله في الخلاص من ربقة الأسر، واستيأس من نيل الحرية لأنه يرى الأبواب مُوصَدةً في وجهه، بينا لا يزداد غُلُّه إلا إيثاقاً يؤدي إلى جفاف أنامِلِه وَتَفقُّعِها:

ورَاثَ عليه الوافدون فما يَرَى على النَّاسِ منهمْ ذا جِفَاظٍ يُطَالِعُه

وَسُدَّ عليه كلُّ بابٍ يُريدُهُ وزَيدَ وَثَاقاً فاقْفَعَلَّتْ أَصَابِعُه(٤٦)

أما الشعراء الذين ابْتُلُوا بمحنة الأسر، واكْتَوَوْا بناره، فقد نعتوا ما مرّ بهم من عناء نفسي وجسدي مُبرِّح، ومَنْ أقدر من شاعر عانٍ مُعانٍ على نعت ما عاناه! وقد صور أحدهم شدة تجربته لدى آسريه، واصفاً حاله بأن الإسار والقمل (أكلاه أَكْلاً)(٤٧). واستعطف أسير سجين آخر اسمه عاصم بن يزيد الهلالي آسره خالد بن عبد ا« القسري استعطافاً يُلين الصخر، إذ ذكر أن الدم ينزفُ ثرّاً من ساقيه من شدة إحكام أصفاده، وقد لبث طويلاً متطلِّعاً إلى فك أسره بدون طائل:

فَأَنْقِذْ يا فداكَ أبي وأُمِّي أسِيراً طال ما انتظر الفِكَاكَا

بِمَرْوِ الشَّاهِجانِ إذا تَرَوَّتْ حَدِيدةُ ساقِهِ بِدَمٍ دَعَاكَا(٤٨)

ووصف أعشى همدان حاله حين وقع أسيراً في بلاد الدَّيْلم، وكان في البعوث التي سيَّرها الحجاج بن يوسف إليها، وكيف بات رهينة لدى العدوِّ يرسف في الأصفاد، آناءَ الليل وأطرافَ النهار، وقد أثرت في ساقيه وساعديه إذ لم تكن قد اعتادتها، فهزل وعريت أصابعه ويداه من اللحم، بعد أن كان قبل أن يؤسر سعيداً رخِيَّ البال، شديد الإباء للضيم:

أصْبَحْتُ رَهْناً لِلْعُدَاةِ مُكَبَّلاً أُمْسي وأُصْبِح في الأَدَاهِم أَرْسُفُ

. . . .

واسْتَنْكَرَتْ ساقِي الوَثَاقَ وساعِدي وأنا امْرُؤٌ بادِي الأَشَاجِعِ أَعْجَفُ

ولقد أراني قبل ذلك ناعِماً جَذْلاَنَ آبَى أن أُضَامَ وآنَفُ(٤٩)

ولم تقتصر إساءة معاملة الأسير على ربطه بالأغلال والسلاسل، على ما لذلك من وقع أليم على نفسه وروحه، بل اتخذت مظاهر شتى تتراوح

بين ازدرائه والهزءِ به، كضحك الشيخة العبشمية من عبد يغوث الحارثي، وإيذائه وإذلاله بالقول والفعل وضربه وتعذيبه وإيقاع أقسى العقاب به: سفك دمه، أو اختيار أشنع سبيل لإزهاق روحه وذلك بحرقه.

ومن إساءة معاملة الأسير حبسُهُ في مكان ضيِّق كحفرة أو سرداب أو بئر، كسِجن مَعْبَدِ بن زرارة الذي وصفه عوف التيمي بأنه (حفرةٌ عميقٌ قَعْرُها)(٥٠).

ومنها استرقاقه وعدم قبول فداء له، كما صنع بنو خُنَاعَةَ الهذليون بأسيرٍ لهم يدعى رُبَيْعاً إذ باعوه بمكة. وكمن يدلي بعذر وهو أقبح من ذنب انبرى شاعرهم يمجد صنيعهم، ويَشْمَت بالأسير المستعبَدِ البائس:

فإنَّك قد شُريتَ فَعُدْتَ عَبْداً بمكة حيث تَرْتَعُ العِظاما(٥١)

وكم من أسيرٍ لقي على يد مَنْ أسَرَهُ من العذاب ما (يُشِيب ناصيةَ الصَّبِيِّ ويُهرِمُ) كبَنِي محارب، مثلاً، الذين أسرهم ملك الحيرة الأسود بن المنذر فعذَّبهم عذاباً شنيعاً جدّاً يذكرنا به، ما نسمعه بين حين وحين عما يمارسه بعض الوحوش اللابسة ثيابَ أَنَاسِيَّ في أجهزة الأمن السرية الآن مع ضحاياها في بلاد كثيرة، فقد أحمى الحجارةَ (وقال لهم: إني أَحْذِيكم نعالاً، فأمشاهم على الصَّفا المُحْمَى، فتساقط لحم أقدامهم)(٥٢).

وقد بَجِحَ شاعرٌ لَخْمِيٌّ بهذه الممارسة الهمجية الحاقدة، وعيَّر مُحَارِباً بتَلَقِّيهِم هذا النَّكال الأليم:

على عهدِ كِسْرَىٰ نَعَّلَتْكُمْ مُلُوكُنا صَفاً من أُضَاخَ حَامِياً يَتَلَهَّبُ(٥٣)

وهكذا يقلب الهوى المعايير، ويرد الشَّرَّ والعارَ خَيْراً ومفخرة.

وكان قتل الأسرى ممارساً قبل الإسلام، ومن الأسرى الذين قُتِلوا عبد يغوث الحارثي، قتلته تميم لما أسرته يوم الكُلاب الثاني، لأخذ الثأر من قومه بني الحارث بن كعب لقتلهم في اليوم عينه فارسَهُم النعمانَ بْنَ جَساس(٥٤). وقتل بنو سهم الهذليون أسيرهم عمرو بن عاصية البَهْزِيَّ، ولم يلبّوا طلبه حتى شربةً ماءٍ طلبها قبل قتله، بل آلَوْا ألاَّ يذوقَ الماء، فقالت أختٌ له مشيرةً إلى ذلك:

هَلاَّ سَقَيْتُمْ بَني سَهْمٍ أَسِيرَكُمُ؟! أَهْلِي فِدَاؤُكَ من مُسْتَوْرِدٍ صَادِي(٥٥)

بل إنّ المقاييس انعكست لدى بعض شعراءِ الجاهلية انعكاسها لدى قوم لوط حين طلبوا إخراج لوطٍ وآله من قريتهم لأنهم [أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون] فافتخروا حتى بقتل قومهم أسراهم(٥٦).

وربما قُتِل الأسير ومُثِّل به، ولا سيما إن كان قد أوغر صدور آسريه بفعلٍ فعله بهم قبل أسره، فلما أسرت فهمُ قيسَ بْنَ العَيْزَارَةِ الهُذَلِيَّ اقترح بعضهم، بعد أن أجمعوا على قتله، قطعَ لسانه:

غَـدَاةَ تَـنَـادَوْا ثُـمَّ قـامُـوا وأَجْـمَـعُـوا ... بِقَـتْـلِـيَ سُـلْـكَىٰ لَـيْـسَ فـيـهـا تَـنَـازُعُ

. . . . . .

وقـد أَمَـرَتْ بـي رَبَّـتـي أُمُّ جُـنْـدُبٍ ... لِأُقْـتَـلَ لا يَـسْـمَـعْ بـذلـك سـامِـعُ

تـقـولُ اقْـتُـلُوا قَـيْـساً، وحُـزُّوا لـسـانَـهُ ... بِحَسْبِهِمُ أن يَقْطَعَ الرَّأْسَ قَاطِعُ(٥٧)

وأشنع الشنائع عن هذا الشأن قتل المنذرِ بن امرىء القيس اللخميّ عدداً كبيراً من بكر بن وائل على قُنَّة جبل، فبلغت دماؤهم سفْحَهُ، كما أمر أن تحرق السبايا البكريات، لكن الحضور الميمون لرجل قيسي من بطانة هذا الطاغية حال دون ذلك، إذ شفع لديه فيهنَّ فشفَّعَه وأطلقهن(٥٨). وقد افتخر الأعشى بشفاعة ابن كلثوم لأنه وائليٌّ مثلُهُ (الأعشى بكري وعمرو تغلبي):

ومِـنَّـا الـذي أعـطـاه بـالـجـمـع رَبُّـه ... عـلـى فـاقـةٍ، ولِـلْـمُـلـوكِ هِـبَـاتُـهـا

سَـبَـايَـا بـنـي شَـيْـبَـانَ يَـوْمَ أُوَارَةٍ ... عـلـى النَّارِ إذ تُـجْـلَـىٰ له فَتَـيَـاتُهَا(٦٠)

وكما إن (الحَيَّةَ لا تَلِدُ إلا حَيَّةً) فقد صنع ابنه عمرو (عمرو بن هند) نحو صنيعه فأحرق مائة رجل من بني تميم، ولذلك سمي (مُحَرِّقاً)(٦١). وكان الحارث بن عمرو، من آل جفنة، أول من ابتدع هذه العقوبة الشنعاء، وكان أيضاً يدعى بالمُحَرِّق، وكذلك امرؤ القيس بن عمرو اللخمي. أي إن إمارة المناذرة مارست أسلوب البطش الوحشي والقمع الشديد في تعاملها مع القبائل العربية(٦٢)، حاذيةً في ذلك حذو غيرها من الأمم القديمة كالرومان والعبرانيين الذين كانوا ينزلون عقوبة الحَرْق بالمحاربين(٦٣).

وإذا كان المناذرة قد غَلَوْا غُلُوّاً فاحشاً في الانتقام من مناوئيهم، ومعاقبة أسراهم وهم في حال لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، فإن الأسرى كثيراً ما لَقُوا في الجاهلية معاملة غير حسنى، وإن لم تبلغ مبلغ هذه المعاملة الوحشية. كما صورت واقع الحال الأخبار والأشعار التي عرضنا لشيء منها فيما سبق، تلك القسوة التي هي ثمرة إِحَنٍ دفينةٍ، وَتِراتٍ قديمةٍ ذاتِ جذورٍ ضاربةٍ في أعماقِ النفوس.

ومن ذا الذي لا يتوقع من مجتمع قبليٍّ ركيزتُه الحَمِيَّةُ الجاهليَّة للقبيلة ممارساتٍ همجيةً محمَّلةً بالتَّشَفِّي، تشعلها الأحقاد والضغائن والنزعات الانتقامية التي تُلْفِي في الثأر ما يطفىء ضِرَامَ نار الغِيظ المشبوبة في الأحشاء؟

لكن، برغم ما بدا مما مضى، **فإن الظاهر أن الأسرى كانوا يَلْقَوْنَ من آسريهم، في الغالب، معاملةً غير سيئة. لكن المعاملة القاسية بل البالغة في الوحشية أقصى مدى هي التي يرد لها ذكر على ألْسِنَةِ الشعراء، وذلك لما فيها من غرابة خرق للمألوف.** على أنَّا لا نعدم من يباهي بإحسان قومه معاملة أسراهم، ويعيِّر عَدُوَّه بالإساءة إلى من في أيديهم من الأسرى، كأدهم بن حازم الضبي الذي افتخر بأنه وقومه لا يسلبون مال أسراهم، كما صنع العامريون، وأنهم لا يمنعونهم من الأكل والشرب لأن ذلك من أقبح ما يوجب الذَّمّ، كما إن إطعام الأسير من خير ما يجلب الثَّنَاءَ، ويؤكد أنهم جميعاً يسلكون هذا النهج الذي أوصاهم بالسير عليه جدُّهُم، وما كانوا يخالفون وَصَاتَهُ في حالَيْ عُسْرِهم ويُسْرِهم:

فما نَسْلُبُ الأَسْرَىٰ كما قد فَعَلْتُمُ ولا نَمْنَعُ الأَسْرَىٰ من الأَكْلِ والشُّرْبِ
وَلِبْسُ ثِيابِ الْمَيْتِ عارٌ وذِلَّةٌ ومَنْعُ الأَسِيرِ الأَكْلَ من أَقْبِحِ السَّبِّ
بذلك أوصانا أبونا، ولم نكنْ لِنَتْرُكَ ما وَصَّاهُ في الْخِصْبِ والجَدْبِ(٦٤)

كما إن الشعراء الذين ذاقوا طعم الأَسْرِ نادراً ما وصفوا معاملة وسطاً لا هي بالحسنة ولا بالسيئة لَقُوها على أَيْدِي آسريهم، على أنَّ مثل تلك المعاملة هي التي تغلب على الظّن أنها أكثر فُشُوًّا من سواها. وما ذلك إلا لأن عدم إساءة معاملة الأسرى هو الأمر المألوف الذي لا يستوجب ذِكْراً.

إن العواطف والانفعالات الجائشة هي التي تأبى الانحباس، فلا بد للمصدور أن ينفث لينفس عن تباريح جواه، فتتلقَّفُ الأسماعُ ما يفوه به، وتردده الأفواه، وإن كان أولئك المضطهدون البائسون هم القلة.

ومن ناحية أخرى، يُلْفِي بعض الآسرين في الحديث عن تضييقهم على من في أيديهم من أسرى ما يشفي غيظاً مترعة به قلوبهم، لأنهم ربما كادوا يُصْرَعُون في العراك الوحشي مع أولئك الأسرى وأنصارهم. فزيد الخيل، مثلاً، على ما هو عليه من خلق كريم، تحدث على غير استحياء، عما فعل بالحارث بن ظالم المري، دون أن يشفع لظالم كونُهُ نِدّاً له في السؤدد والمقام. فقد تركه يسير راجلاً، وزيد راكب، وقد كُتِّفَ وربط إلى ناقة تُغِذُّ به السير بين الإبل، فلا يملك إلا أن يسعى سعيا حثيثاً ما وسعه السعي لئلا تنأى عنه فيسقط، فَتَجُرَّه جرّاً قد يُودِي به. وهو على هذه الحال يظل يستجدي زيداً ومن معه أن يقبلوا فداءه، ويمنُّوا عليه، ولا يأبى، على أنه سَيِّدٌ، أن يَجُزُّوا نَاصِيَتَه.

ولا يجد زيد حرجاً في التمدح بهذه المعاملة العنيفة لأسير غير ذي حولٍ أو قوة، بل مضى يتباهى بأنه كان يمعن في سقيه كؤوس الإذلال بأن ينخس مؤخرته بِرُمْحِه بين آنٍ وآنٍ حتى انشقَّت!:

وسُقْنَا نِساءَ الْحَيِّ مُرَّةَ بالْقَنَا ... وبالْخَيْلِ تَرْدِي قد حَوَيْنَا ابْنَ ظَالِمِ

جَنيباً لأِعْضَاد النَّواجِي يَقُدْنَهُ ... على تَعَبٍ بين النَّواجِي الرَّواسِمِ

يَقُولُ: اقْبَلُوا منِّي الفِدَاءَ، وأَنْعِمُوا ... علَيَّ، وجُزُّوني مكانَ الْقَوَادِمِ

وَقَدْ مَسَّ حَدُّ الرُّمْحِ قَوَّارَةَ اسْتِهِ ... فَصَارَتْ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ الْمُتَضَاجِمِ(٦٥)

على أن ما سلف حول إساءة معاملة الأسرى لا ينبغي أن يوحي باستحسان عام لدى العرب لها. فقد كان كرام الناس يعدُّون قتل الأسير اقترافاً معيباً ما لم يك قاتلاً أو ذا جريرة كبرى استحقَّ عليها إهدار دمه. وقد بلغ من سوء مغبة قتل الأسير أن عُدَّ عائقاً في سبيل الطامح إلى المجد في نظر شاعر جاهلي، حيث جعل في كلمة له، هذا الأمر، مقروناً به الاستهانة بسبايا العرب، وخصلتين أخريين، مما يحول بين عباس بن مرداس السلمي، وبلوغ منزلة

سيِّدِ سُلَميٍّ آخر يدعى عباس بن أنس[٦٦]. وقد آثار هذا الاتهام حفيظة عباسٍ المتَّهَم فكان سبباً في بدء مهاجاةٍ بينه وبين ذلك الشاعر[٦٧].

بل إن وفاة الأسير في الأسر رُبَّما تُحُوشِيَتْ مخافة المذمَّة لِظَنِّ الناس أنه إنما مات مما لَقِي. وقد حذَّر بشر بن قيس الشيبانيّ أخاه الفارس المعروف بَسْطامَ بن قيس لما أسر أبا مُلَيل اليربوعي من أن يموت أسيره في يديه هَزْلاً فَتَسُبَّه به العرب[٦٨]. وكان قد (أضرب عن الطعام)، كما يقال الآن، احتجاجاً على الأسر، مما دعا بَسْطاماً إلى إطلاقه بعد أن أحْلَفَهُ ألا يَغْزُوَ شيبانَ مرة أخرى[٦٩].

ومن ناحية أخرى كان تجنُّبُ قتل الأسرى مدعاةَ للفخر (افتخر رجل يدعى ابن جفنة بأن قومه ما قتلوا أسيراً قط)[٧٠].

وفي الإسلام لم يك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما هو معلوم، بعد أن (أثخن في الأرض) يقتل الأسرى ما لم يكونوا أسرفوا، قبل أسرهم، في معاداة الدعوة الإسلامية وإيذاء المسلمين[٧١]، أو نقضوا العهد وعادوا إلى الإيذاء بعد أن منّ عليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفك أسرهم، أو أحدثوا قتلاً، كالنضر بن الحارث بن كَلَدَة، وعقبة بن أبي معيط[٧٢]، وكالحويرث بن نقيذ الذي كان يؤذي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورمى بابنتيه فاطمة وأمِّ كلثوم إلى الأرض، وكان العباس بن عبد المطلب حملهما من مكة يريد بهما المدينة[٧٣]. وكَمُقَيْس بن صُبَابة الذي أُسِرَ فقتل قصاصاً لجريمة ارتكبها، وكان أتى المدينة وأظهر الإسلام، وطلب من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ دِيَةً لأخيه هشام بن صبابة، وكان قد قتله رجل من الأنصار خطأ، وكان مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة بني المصطلق، فأمر له النبي بِدِيَةِ أخيه (فأقام غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدّاً، فلما ظفر به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الفتح أمر به فقتل)[٧٤]. ومثل هؤلاء عبد الله بن خَطَل لقتله رجلاً مسلماً ثم ارتداده، مع شدة عدائه للإسلام حيث جعل قينتين له تُغَنِّيَان بِذَمِّه[٧٥]، وكذلك هبّار بن الأسود لإيذائه زينب بنت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أسقطت جنينها. على أن هبَّاراً أسلم بعد ذلك واعتذر إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعفا عنه[٧٦].

ولما بَعَثَ النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمَةَ لدعوتهم إلى الإسلام فقاتلهم وقتل بعض أسراهم، وعلم بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام استاء منه جدًّا، وتوجه إلى ربِّه مناجياً: «اللهم إنِّي أبرأ إليك مما صنع خالد»، وأرسل عليّ بن أبي طالب بِدِياتِهِمْ(٧٧). بل إنه عوّضهم عن كل ما فقدوه في القتال حتى (مِيلغ الكلب)(٧٨).

وقد أوصى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحابته بالأُسَارى خيرا(٧٩)، وكان فِعْلُهُ عليه الصلاة والسلام مطابقاً لقوله في ذلك، فإنه، مثلاً، لما جيء بملك بني حنيفة ثُمَامَةَ بْنِ أُثالٍ أسيراً، لم يمنع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يعلمه من شِدّة عدائه للدعوة الإسلامية وإيذائه المسلمين من أن يأمر بالإحسان إليه في الأسر، وإكرامه، بل إنه منّ عليه بغير فداء، مما كان له أثر عظيم الوقع في وجدانه، فأسلم وأمسى من أنصار الدين المخلصين بعد أن كان عدوًّا له لدودا(٨٠). كما إن صحبه رضوان الله عليهم جميعا نفذوا وَصَاته، فمثلاً لما أَسَرَ جماعة من الأنصار أبا عَزِيزِ عميرَ بْنَ هاشم أخا مصعب بن عمير في بدر، كانوا يخصونه إذا قَدَّموا الطعام بالخبز ويأكلون التمر، فكانت ما تقع في يد أحدهم كسرة خبز إلا نفح بها عُمَيْراً، فكان يستحيي فيمُدُّها إلى أحدهم فيردُّهَا هذا عليه(٨١)، وكأنَّ القرآن عناهم: [وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً](٨٢).

أما التمثيل بالأسرى، وإنْ يسيراً، فَمُحَرَّم شأنُهُم في ذلك شأنُ غيرهم. ولما أُشار عمر رضي الله عنه عليه صلى الله عليه وسلم بنزع ثنيتي سهيل بن عمرو لمَّا أُسِر في بدر حتى لا يخطب ضِدَّ المسلمين لم يقبل ذلك(٨٣).

ولم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم حبْسَ الأسرى في أَمَاكِنَ ضَيِّقة أو حُفَر عَميقَةٍ أو سراديبَ. فكان يحبسهم في البيوت، كما صنع بأحد عشر أسيراً من بني تميم جَلَبَهُم إلى المدينة عيينةُ بْنُ حصن الفَزَاري لما عاد بسرية بعثه بها النبي، إذ حبسهم في دار رَمْلَةَ بنت الحارث(٨٤). وربما ربط الأسير بأحد أعمدة المسجد، كما فعل بثمامةَ بن أُثال(٨٥).

وإذا كان الصحابة قد ساروا، كما أشرنا، على هَدْيِ النبي عليه الصلاة والسلام في معاملة الأسرى فإن لكل قاعدة شواذَّ، فربما جرت من أفراد يُعَدُّون

على الأصابع بعض التَّجاوُزَات غير المسموح بها، كما وقع من جميل بن معمر الجمحي إذ قتل زهير بن العجوة، وهو مربوط مع أسرى حُنَين الذين أخذهم أصحاب النبي عليه السلام، لأنه كانت بينهما إِحْنَةٌ في الجاهلية، فسبه أبو خراش الهذلي بهذا الفعل المنكر، وَعَيَّره بأنه إنما تمكّن من قتله لأنه ألفاه ربيطاً، وأقسم أن لَوْ لَقِيَهُ طليقاً فنازله منازلة النِّدِّ للنِّدِّ لما استطاع قتله، بل لكان هو القتيل. وهو يلمِّح بذلك إلى العرف السائد من أن قتل الأسير ومن في حكمه عار يجلب لصاحبه الذَّم والانتقاص لعجزه عن كفِّ الأذى عن نفسه:

فـوالـلـه لـو لاقَـيْـتَـهُ غـيـر مُـوثَـقٍ ... لآبَـكَ بـالجِزْعِ الـظِّـبَـاءُ الـنَّـواهِـلُ

وإنـك لـو وَاجَـهْـتَـهُ إذْ لَـقِـيـتَـهُ ... فَـنَـازَلْـتَـهُ، أو كُـنْـتَ مِمَّـن يُـنَـازِلُ

لَـظَـلَّ جَـمِـيـلٌ أسْـوَأَ الـقـوم تَـلَّـةً ... ولكنَّ قَرْنَ الظَّهْرِ لِلْمَرْءِ شَاغِلُ[٨٦]

وربما تغيّر الحال شيئا ما إزاء الأسير فيما تلا من عصور حين وهت قوى تعاليم الدين العظمى في أنفس بعض القادة.فوجدنا مثلاً سليمان بن عبدالملك يقتل أربعمائة من أسرى الروم، إن صحَّ الخبر، حيث يطلب من الوجوه أن يقتل كل منهم أسيرا. وقيل إنه طلب من الفرزدق ذلك فدسَّ إليه بنو عبس سيفاً كليلاً، فضرب به الأسير ضرباتٍ، فلم يصنع شيئاً. فقال شعراً منه:

فـلا نَـقْـتُـلُ الأَسْـرَى ولـكـن نَـفُـكُّـهُـمْ ... إذا أَثْـقَـلَ الأَعْـنَـاقَ حَـمْـلُ المَغَـارِمِ[٨٧]

فَكُّ الأسرى

يتطرق الشعراء القدامى إلى (فكِّ الأسرى) أو (المَنِّ عليهم) تَطَرُّقاً متكرِّراً، لأنه مفخرة يدَّعونها لأنفسهم ولقومهم، وممدحة يُضْفونها على من يَمْدحون، ويخلعونها عن مهجُوِّيهم وأعدائهم. بل هو من أخطر القِيَم الخلقية والمُثُل الاجتماعية عند العربي، وهو فَعَال جليل ليس يصنعه إلاّ كريم. ولذلك حث الإسلام عليه، ودعا إلى فعله، مُشجِّعاً بشتَّى السُّبل على تحرير الأسيرِ من نير الأسر، وما قد يصحبه من معاناة. قال تعالى: [فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَة. ومَا أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَة. فَكُّ رَقَبَةٍ].

لقد كان فَكُّ العاني من أسمى المكرمات لأن الكرام وذوي القلوب

الرحيمة، هم الذين يحملون تَبِعة عون المتألمين على التخلُّص مما يُؤْلِمُهم، لأنَّ المعاناة الإنسانية تُحرِّك عواطفهم فتأبى عليهم مروءاتهم إلا الوقوف مع المعانين والمستضعفين في الأرض. ومن أولئك الكرام عربي عاش قبل الإسلام يدعى عُمَارَةَ العَوْذِيَّ العبسيَّ نذر نفسه لِفَكِّ الأسرى و(حَلَفَ باللَّهِ لا يسمع صَوْتَ أسيرٍ بِلَيْل إلا فَكَّهُ ووهب له نفسه)[٨٨]، ولذلك سُمِّي (عُمَارَة الوَهَّاب)[٨٩]. وكان حاتم (إذا أسر أطلق... وكان أقسم بالله لا يقتل وَاحِدَ أُمِّهِ. وهو القائل:

أمـــاوِيَّ إنـــي رُبَّ واحـــدَ أُمِّـــهِ أخَذْتُ فلا قَتْلٌ عليه ولا أَسْرُ[٩٠]

وناداه، وهو خارج يوماً في أرض عنزة، أسير مستنجداً به: «يا أبا سفّانة!أكلني الإسَار والقَمْل» فساوم آسِرِيه على فِدْيَته، ثم مضى وأتى بها وأطلقه[٩١].

فلا غرْوَ أن كاد حديث الشعراء عن فكِّ العناة يَعْدِل كل ما سواه من القول فيما له صلة بالأسر، ولا غرو أن ألفينا الشاعر الواحد يعيد القول فيه مادحاً أو راثياً أو مفتخراً مثنى وثُلاث ورُبَاع، كما فعل مثلاً كل من الأعشى والخنساء.

الفخر بفكِّ الأسرى

يفتخر الشعراء الجاهليون بفكِّ الأغلال عن الأسرى وإطلاقِهِم فيظل الواحد منهم يفدِّي الشاعر بنفسه وبأَعزِّ من يحب:

فـيـا رُبَّ مَـكْـرُوبٍ كَـرَرْتُ وراءَهُ وعانٍ فَكَكْتُ الغُلَّ عنه فَفَدَّاني[٩٢]

ويفتخرون بِفَكِّ الأسير من غير فداء فيمضي حرّاً طليقاً مبتهجاً بين الناس:

* **وعـانٍ فَـكَـكْـنَـاهُ بِـغَـيْـرِ سَـوَامِـهِ فأصبح يمشي في المَحَلَّةِ جَاذِلا**[٩٣]
* **وعانٍ فَكَكْتُ الْكَبْلَ عنه، وسُدْفةٍ سَرَيْتُ، وأصحابي هَدَيْتُ بِكَوْكَبِ**[٩٤]

وممن فعل فعالاً رائعاتٍ في فكِّ الأسرى، وافتخر بفعله الأخنس بن شهاب التغلبي قائد تغلب المُلَقَّب بفارس العصا. وذلك أنه بلغه قول حَمَلَ بنِ بدر الفَزَاري منتقصاً من شأنه، وكان دأبه الإغارة على بعض القبائل: «إنَّ فَزَارَة ليست كمن يُغِير عليهم من كلب وغيرها، وقد عجبت له إذ هو من بني معاوية بن عمرو كيف بلغ ما بلغ؟ فقبَّحَ الله تغلب كيف يُعْطُون مثله مقادَهُم»[٩٥] فغزا فَزَارة وقاتَلَهُم في

(الشَّرَبَّة) وأسر منهم رجالاً فيهم فارسهم يزيدُ بْنُ بدر أخو حَمَل، وسبى نساءً. فأتاه وفْدٌ منهم، وبذلوا في يزيد وحده من الفداء ألف بعير. فامتنع عن إطلاقه، وأبدى لهم التشدد، واستخفّ بأمر الفداء، على عِظَمِه.

وقدبلغ من حزن (أعضاء الوفد) على فارسهم أن أرسلوا عيونهم بالبكاء لأنهم أيقنوا أن الأخنسَ قاتلُه، لكنه أذهلهم بأن أطلقه دون أن يأخذ منهم بعيراً واحدا. وفضلاً على ذلك كله زوّد يزيد بما يحتاج إليه من مالٍ ومتاعٍ.

لقد رضي الأخنس عن المال الغادي والرائح بالعمل المُشرِّف الذي تبقى منه (الأحاديث والذِّكْر) الحسن، فآثر تقليد قومه جميلاً لن ينسَوْه:

ألم ترني مَنَنْتُ على يزيدِ ... وَلَم أشْمُت به حَمَل بن بَدْرِ

. . . . . .

ولو أني أشاء لبَاتَ نُصْباً ... يُقَلِّب أَمْرَهُ بَطْناً لِظَهْرِ

ولو أني أشاءُ لَساق أَلْفاً ... كهَضْب الطَّود من سُودٍ وحُمْرِ

ولكني حفظت بني أبيه ... بنعمة فَكِّهِ لِبَقَاءِ دَهْرِ

وقد سَجَّل يزيدُ امتنانَه الصَّادِقَ، وعرفانه الحق بجميل الأخنس بشعر نابع، إن جاز هذا التعبير، من أعماق الأعماق، معبر به عن إحساس حقيقي بالشكران لنعمان الأخنس:

جزى الله عني، والجزاءُ بِكَفِّهِ ... أبا الغَمْر أعني الأَخْنَسَ بْنَ شِهابِ

تدارَكني من بعد بُؤْسٍ بِنعْمَةٍ ... وكنتُ أَسِيراً في جَنَاح عُقَابِ

. . . . . .

فأطْلَقَني من بعد ما ظنَّ قومُهُ ... وقوميَ ظنًّا لم يكن بِصَواب[٩٦]

وتمكّنت تغلب أيضا من أسر حذيفة بن بدر أخي يزيدَ وحَمَل، أسره في يوم (خوّ) شاعرُ تغلب الأشهرُ عمرو بن كلثوم، وآثر المنَّ عليه بِلا فِداءٍ، على أنه عرض أن يفديَ نفْسَه (بِأَلْفِ ناقةٍ حَمْراءَ سوداءِ المُقْلةِ)، لأنه «سيِّدٌ من سادات مضر» فَعَمْرٌو يُحِبُّ (الاصطناع إليه) ثم جزَّ ناصِيَتَه، وأطلقه، وأعاده إلى قومه، مُصِمًّا أذنيه عن دعوة التغلبيين إلى حزِّ رأسه. وله فخر بهذا الصنيع الجلل، كما مدحه حذيفة عليه مبدياً عِرفانه بإحسانه، ومؤكِّداً أنه طوّقه بعُرْفٍ كريم لن يفتأ شاكراً له

عليه ما دام فيه عِرْقٌ ينبض(٩٧).

والكريم، كا قيل، له مَعَادٌ، فلم تك هذه بالمرة الوحيدة التي يطلق فيها عمرو ابن كلثوم أسيراً بلا فداء، فقد أطلق رجلاً أسَرَه في يوم آخر من غير أن يغرمه فصيلاً بل ولا فتيلاً، على أن الرَّجُل بذَلَ له من الإبل ما شاء، ومدحه وقومه الأراقم ولم يكتف بإطلاق سرَاحِهِ، بل زَوَّدَه براحلةٍ وزادٍ، تماماً كما فعل الأخنسُ ابن شهاب بيزيد بن بدر، فمضى إلى أهله(٩٨).

ومن الشعراء الأقدمين من افتخر بأن غايته من كسب المال ليست إلاَّ منْ أجل أمرين: إكرام ضيف يحلّ به، أو فداء أسيرٍ مغلولٍ بالقيود. وبأنه من أناسٍ سادةٍ شيمتهم فكُّ أغلالِ الأَسْرَى.

* **وما إن كَسِبْتُ المال إلا لبذلِهِ لِطَارقِ ليلٍ، أو لِعَانٍ مُكَبَّل**(٩٩)
* **ونحن مَعَاشِرٌ خَرَجَتْ مُلُوكاً تَفُكُّ عن المُكَبَّلَة الكُبُولا**(١٠٠)

ومنهم من تباهى بأن قومه يفكّون الأسرى بعد أن تكون السلاسل قد (أكلت أيدِيَهُم)، ومن تباهى بكثرة الأسرى الذين أطلق قومه سراحهم من غير أن يأخذوا لقاء إطلاقهم فدية، بل ومن غير أن يجزوا نواصِيَهم تحامياً لإذلالهم، كما يفعل كثيرون بمن يمنُّون عليهم:

* **مَصَالِيتُ فكَّاكُون لِلسَّبْيِ بَعْدَما تَعَضُّ على أَيْدي السَّبِيِّ سلاسله**(١٠١)
* **كم من أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بلا ثَمَنٍ وجزٍّ ناصيةٍ كُنَّا موالِيهَا**(١٠٢)

ومَجَّدَ حسان بن ثابت مآثر أبيه وآله في فك الأسرى، مصوِّراً تصويراً مثيراً حال الأسير المحتاج للعون، فناشد بني النجار بن ثعلبة، وهم قومه من الخزرج، ألا يغفلوا عما كان يصنع أبوه إذا ضاق الأسير ذرعاً بنفسه، حين لا يجد من يسعى لتخليصه من أسْره، أو ملاطفته وإيناسه، حين يغفل عنه قومه فلا يرى منهم رجلاً وفيّاً يفد إليه لِيُخَفِّفَ عنه فادح بَلِيَّته، فسُدَّتْ في وجهه سبل الحرية، وزِيدَ تكبيلاً وإيثاقاً حتى جفَّت يداه وتَشَقَّقَتْ أنامِلُه. فكان إذا ذكر قومَهُ المُقِيمين حيث هم غير آبِهين به وبمعاناته ساح الدمع من مُقْلَتَيْهِ غزيراً. ألسنا نقصده على متون مطايانا، فلا نَدَعه حتى نَفْتَدِيَه بِمَالِنا، ونُحَرِّرَهُ من قُيُودِه؟:

نَشَدْتُ بني النَّجَّار أفعال والدي ... إذا لم يَجِدْ عانٍ له من يُوَازِعُهْ
وراثَ عليه الوافدون فما يرى ... على النَّأْي منهم ذا حِفاظٍ يطالعُهْ
وَسُدَّ عليه كُلُّ أمرٍ يريدُهُ ... وزيد وِثاقاً فاقْفَعَلَّتْ أصَابِعُهْ
إذا ذَكَر الحيَّ المُقيمَ حُلُولُهُمْ ... وأبصر ما يلقى استَهَلَّتْ مَدَامِعُه
أَلَسْنَا نَنُصُّ العِيسَ فيه على الْوَجَا ... إذا نامَ مولاهُ ولذَّتْ مَضَاجِعُه
ولا ننتهي حتى نَفُكَّ كُبُولَه ... بأمْوَالِنَا، والخَيْرُ يُحْمَدُ صانِعُه[١٠٣]

وكان فكّ الأسرى من ممارسات الأَجْوادِ النُّبلاء فقد عرف عن صعصعةَ بْنِ ناجيةَ الدارميِّ جَدِّ الفرزدقِ مثلاً، وهو معدود من أجواد العرب[١٠٤]، وكان يَشتري البناتِ اللاتي كُنَّ سَيُوأَدْنَ يستنقذهن[١٠٥]، عُرِفَ عنه المبادرةُ إلى فكّ الأسرى، وأكثر ابنُ ابْنِه الفرزدقُ من عَزْوِ هذا الضَّرب من العمل الإنسانيِّ الخَيِّر إليه في فخره الكثير به:

* أنا ابنُ عِقَالٍ، وابنُ ليلى وغالبٍ ... وفكَّاكِ أغلالِ الأسيرِ المكفَّرِ[١٠٦]
* غلامٌ أبوه المُسْتَجَارُ بقبْرِهِ ... وصَعْصَعَةُ الفكَّاكُ من كان عانِيا[١٠٧]

المدح بفَكِّ الأسرى

كما أكثر الشعراء من الفخر بفكّ الأسرى أَكْثَروا من عَزْوِه إلى ممدوحيهم. فمدح أوس بن حجر حاتِماً بأنه مكث طوال حياته موجِّهاً جُلَّ همّه إلى أمرين: فكّ الأسرى وعون الغارمين. وزهير كرر مدح هرم بفكّ الأسرى، كما مدح تأبط شرًّا أسد بن كُرْز سَيِّدَ بَجِيلةَ بذلك:

* فتىً لا يزال الدَّهْرَ أكبَرُ هَمِّهِ ... فِكاكُ أسيرٍ، أو مَعُونَةُ غَارِمِ[١٠٨]
* أغرُّ أَبْيَضُ فَيَّاضٌ يُفَكِّكُ عن ... أيدي العُنَاةِ وعن أَعْنَاقِها الرِّبَقَا[١٠٩]
* أَلَيْسَ بِضَرَّابِ الْكُمَاةِ بِسَيْفِهِ ... وفَكَّاكِ أَغْلالِ الأَسِيرِ الْمُقَيَّدِ[١١٠]؟
* وَجَدْتُ ابْنَ كُرْزٍ تَسْتَهِلُّ يَمِينُهُ ... ويُطْلِقُ أَغْلالَ الأَسِيرِ المُكَبَّلِ[١١١]

وعَدَّد الأعشى خصال الملك اللخمي الأسود بن المنذر أخي النعمان بن

المنذر فجعل فَكَّ الأسرى ضمن مناقبه وَشِيَمِه(١١٢).

ولما شفع ملك بني حنيفة هوذةُ بن علي لدى كسرى لِفَكِّ أسر عددٍ من التَّميميِّين كانوا أسرى لديه أَسَرَهم يوم الصفقة (وهو يوم في الجاهلية كان بين الفرس وبني تميم) لأخذهم لَطَائِمه، وهي الإبل التي تحمل المسك، (في نِطاع)، وهو ماء لتميم وأفلح في مسعاه، وتحقَّق تحرُّرُهم، أثنى الأعشى عليه لِشَفَاعته الكريمة تلك التي لولاها لَظلَّ التَّميميُّون في سِجْنِهم الشاهق المُظلِم وسط حصن (المُشَقَّر) لا يملكون فيه لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يسيغون لِشَهِيِّ المآكل، لِمَا هُمْ فيه من غَمٍّ، طَعْماً(١١٣).

ومدح الأخطل مَصْقَلَةَ بْنَ هُبيرةَ والي طَبَرِسْتان في عهد معاوية بإطلاق أسْرىً لديه، فَصَوَّر حالهم في الإسار، وخوالج نفوسهم عند الفكّ، تَصْويراً يُبْدي عَظَمةَ العمل الذي أقدم عليه مصقلة. فقد كانوا قانطين من أن يجدوا ملجأ يفرّون إليه مِمَّا هم فيه، فاستنقذهم من قاع بئر مُظْلِمة، إذا اطَّلع فيها الجبان انخلع فؤاده فَرَقاً من الوقوع فيها لوحْشَتِها وقبحها. فطفقوا لما وَعَوْا إطلاقه إياهم يُفَدُّونَه بأرواحهم، وقد ضجّوا ضجَّة رجلٍ واحدٍ بِالنَّحيب. ومما زاد في طغيان المفاجأة السَّارة على عواطفهم أن لم يكونوا يَرَوْن لهم لديه جاهاً يحمله على هذا الصَّنيع الجميل:

وقد فَكَكْتَ عن الأسرى وَثاقَهُمُ ... وليس يرجون تِلجَاءً ولا دَخَلا

وقد تَنَقَّذْتَهُمْ من قعر مُظْلِمَةٍ ... إذا الجبان رأى أمثالها زَحَلا

فَهُمْ فداؤُكَ إذ يبكون كُلُّهُمُ ... ولا يَرَوْنَ لهم جَاهاً ولا نَفَلاً(١١٤)

ونسبت الخنساء إلى صخرٍ إطلاق الأسرى عِدَّةَ مراتٍ في شِعْرها، فهو إلى جانب خِصَالِهِ الأُخَرِ (فكّاك عانيةٍ)(١١٥)، أو (فكّاكُ العُناة)(١١٦)، وهو الذي يَهُبُّ لغوث الأسير المتألم من سوء حاله فتراه يحكُّ ساقَيْه، وَيُجَرُّ بأصفاده جرًّا، فَيُلَبِّي صَخْرٌ دعوته ويقطع قيوده، وما كان، قبل أن يرى صخراً، يظن أن سَتُقْطَع أبداً:

وعانٍ يَحُكُّ ظَنَابِيبَه ... إذا جُرَّ في القِدِّ لا يَرْفَعُ

دعاك فَهَتَّكْتَ أغلالَهُ ... وقد ظَنَّ قَبْلَك لا تُقْطَعُ(١١٧)

وكم من عانٍ مثل هذا قد تجرح ساعداه من أثر قيوده أطلقه صخرٌ دون أن يلقى منه لقاء ذلك جزاءً ولاشكوراً[١١٨].

وتساءلت: مَنْ مِثْلُ صخرٍ لإغاثة الأسير، ولا سيما الفقير الذي قد أُسِر ليُثْأرَ به عمَّن قَتَلَ، فهو يائس من الحياة:

علـى صَـخْـرٍ، وأَيُّ فـتًـى كَـصَـخْـرِ لِـعَـانٍ عـائِـلٍ غَـلِـقٍ بِـوَتِـرِ[١١٩]

وما رُثي به أحد الفرسان الجاهليين أنَّ الأسير لن يلقى بعده من يَفكُّه مِنْ أسْرِه فهو يبكي لفقده، كما سيبكي الأسرى الذين كانت عادةُ المَرْثِيِّ فَكَّهُمْ مع مَنْ يبكيه من الفرسان والأرامل اللَّاتي فَقَدْن رِجالَهُنَّ وواجَهْنَ الضَّياع، فليس حيًّا لِيَشُدَّ أزْرهُنَّ:

سيـبـكـيـك عانٍ لم يَـجِـدْ مـن يَـفُـكُّـهُ وَيَـبْـكـيـكَ فُـرْسَـانُ الْـوَغَـى ورِجَـالُـهـا

وَتَبْكيكَ أَسْرَىٰ طالَمَا قد فَكَكْتَهُمْ وأَرْمَـلَـةٌ ضَـاعَـتْ وضَـاعَ عِـيـالُـهـا[١٢٠]

وأخيراً، لعل تناقضاً قد بدا في إجلال الشعر لحسن معاملة الأسير والمَنِّ عليه، وفي الوقت عينه إبداءِ الشَّماتة بِالعَدُوِّ المأسُورِ والتَّشَفِّي الحاقد منه. وفي الواقع أن لا تناقض، فالعربي يلبس لكل حالٍ لبوسَهُ، ويجعل لكل حادثٍ حديثاً، وكلِّ مقامٍ مقالاً، فليس يعني تَشَفِّيه وإبداؤه البهجة بقدرته على عَدُوِّه الألدِّ تنكُّرَهُ لكون حسن المعاملة شأناً محموداً، وفكُّ العناة قيمةً خُلُقِيَّةً عُليا، يُوَفَّق إليهما من يوفّق من أفذاذ الرجال وربما كان هذا الشامت المتشفِّي منهم في مقام آخر، أو حين يشفي غيظ قلبه من عدوٍّ طالما أحفظه، فيجده يصفح عنه ويرسله حرًّا طليقاً.

دور الشعر في فك الأسرى

يلحظ مستقرىء الشِّعر القديم أن للكلمة الفنية الشعرية دوراً في فكّ الأسرى. فَرُبَّ مقالٍ قِيلَ في مقامه الملائم أَثْمرَ في هزِّ أريحِيَّةَ الآسر، وَمَسَّ أوتارَ الإنسانية فيه، فاستجاب له استجابةً عاجلةً كريمةً بإطلاقِ مَنْ في يَديْهِ من الأسرى، كما وقع لأسيرٍ لدى ربيعة رآهم يحْتَسُون الخَمْرَ، فرفع صوته يمدحُهُم لِيُسْمِعَهم متغنياً ومُسْتجدياً إياهم مَنْحَهُ حُرِّيَّتَهُ:

وقـد أدْرَكَـتْنِي، والحَوادِثُ جَـمَّـةٌ مُـخَـالِـبُ قـومٍ لا ضِـعَـافٌ ولا عُـزْلُ

سراعٍ إلى الجُلَّى، بِطاءٍ عن الخَنَا رِزَانٍ لدى الباذِين في غيرِ ما جَهْلِ
لعلَّهُمُ أن يُمْطِرُوني بِنِعْمَةٍ كما صابَ ماءُ المُزْنِ في البَلَدِ المَحْلِ[١٢١]

وكما وقع لأسير من بني يربوع من تميم كان لدى بسطام بن قيس فسمعه في الليل يتغنَّى بأبياتٍ يمدحه فيها، ويأمل منه أن يَمُنَّ عليه، فيذَكر أمه وشفقتها عليه واعتلالها واضطراب جأشها لِغَيْبَتِه، فما كان من بَسْطام إلا أن آلى «ألا يُخْبِرَ أُمَّهُ عنه غَيْرُهُ» وأطلقه[١٢٢].

وفي حادثة أخرى تمكَّن الشاعر الجاهلي علقمة بن عبدة من حمل الحارث بن أبي شمر الغساني على إطلاق مائة أسير من بني حنظلة من تميم أسرهم في يوم (مَرْج حليمة) الذي كان للغساسنة على المناذرة. وكان مع الأسرى شأسُ بن عبدة أخو الشاعر. وكان الشاعر وَفَدَ على الحارث طالباً فكَّ أَسْرِ أخيه، ولم يحلم بأن يقبل الملكُ المَنَّ على الأسرى كلِّهم، فمدحه بقصيدته (طحا بك قلب)، وقال فيها:

وفي كُلِّ حَيٍّ قد خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ من نَدَاكَ ذَنُوبُ

فقال الحارث: «إيٍ والله! بل وأَذْنِبَةٌ»، ثم أطلق شأساً. وقال لعلقمة: إن شِئْتَ الحيَاءَ، وإن شئتَ أَسَراءَ قَوْمِك. وقال لجلسائه: «إن اختار الحيَاءَ على قومه فلا خير فيه». فقال: «أيها الملك! ما كُنْتُ لأختار على قومي شيئاً»، فأطلق له الأسرى، وحباه وكساه، وفعل ذلك بالأسرى جميعهم، وزودهم زاداً كثيراً. فلما بلغوا بلادهم أعطوا جميع ذلك لِشَأْسٍ. وقالوا: «أنت كنت السبب في إطلاقنا فاسْتَعِنْ بهذا على دهرك»[١٢٣].

ولما أنشد حاتم الطائي الأمير الغسانيَّ الحارثَ بْنَ عمرو الجَفْنِيَّ شِعراً استمنحه فيه عدداً كبيراً من الطائِيِّين الذين أَسَرَهم في غارة له عليهم لِيَنْتَصِر لابنه الذي قتلوه، أطلقَ بَعْضَهم وأبقى بعضاً. ودعاه الى الطعام والخمر. فقيل له: أَتَشْرَبُ الخمْرَ وقومُك في الأغلال؟ قم إليه فاسأله إياهم. فقال أمامه أبياتاً أُخَر اسْتَحَثَّه فيها على المَنِّ على الباقين فَفَعَلَ[١٢٤].

وأسر صعصعةُ بن محمود بن عمرو بن مَرْثَد أخا سلامة بن جندل الشاعر،

واسمه أحمر، فبعث إليه سلامة أبياتاً أثنى عليه بها، وَخَيَّره بين المديح لقاء إطلاق أخيه، ومائة ناقة فدية، فاختار الشعر على المال، وأطلق أَحْمَرَ[١٢٥].

فداء الأسرى

إن لم يَمُنَّ الآسِرُ على أسيره بِفَكِّهِ فربما طلب فِداءً له، فإنْ لُبِّيَ طلبُهُ وإلاّ استرقَّه[١٢٦]، ومقدارُ الفِدَاء غير مُحدَّدٍ، بل يزيد وينقص حسب مكانة الأسير الاجتماعية وحاله الماليّ، وحسب سماحة الآسر أو حرصه، كما (يتوقَّفُ على مبدأ المُساومة)[١٢٧]، فقد تكون فدية الأسير غير ذي المكانة ذَوْداً (بضع نياق)، وقد تبلغ مائة ناقة. ويقال: «فلانٌ قَيْدُ مائةٍ» و«عِقَالُ مائةٍ» إذا كان فداؤه، إن أُسِر، مائةَ ناقةٍ[١٢٨].

أما الفرسان فقد تبلغ فدية أحدهم أربعمائة ناقة وأكثر من ذلك، كفديةِ بُسْطام بن قيس التي ساقها إلى عتيبة بن الحارث بن شهاب لمَّا أَسَرَه في يوم (الغَبِيطَ) فقد كانت أربعمائة ناقةٍ وثلاثين فرساً[١٢٩]. بل قد تصل إلى ألف بعير كفداءِ يزيد بن بدر الفَزَاري الذي ساقه قومه للأخنس بن شهاب التغلبي، فَرَدَّه إليهم وَمَنَّ عليه بلا فداءٍ، كما سبق[١٣٠].

وفدية الملك ألفُ بعيرٍ[١٣١].

أما ما ذكره أحمد محمد الحوفي رحمه الله من أن أكبر قيمةٍ في فداء أسير هي ثلاثمائة بعيرٍ فَوَهْمٌ. بل إنه هو ما لبث أن أشار بعد ذلك مباشرةً إلى ما يدل على خلاف ما قال[١٣٢].

وَرُبَّ فقير مُدقِعٍ ابتسم له الجَدُّ بِأسْره سيِّداً أو ملكاً، كما وقع ليزيد بن الصَّعِق العامري، إذ أسر حسانَ بن وَبْرَة أخا النعمان بن المنذر لأُمِّه، ففادى نفسه بفداء الملوك[١٣٣]. ولهذا فإنَّ أَسْرَ الأشراف وسَرَاة القومِ مطمح يُتاق إليه طموحاً إلى نيل فديةٍ ثمينة، كما ذكرنا في صدر هذا البحث. وقد عبَّر يزيدُ هذا عن حرصه على أَسْرِ السادة والفرسان لِغَلاَءِ فدائهم:

أُساور بَيْـضَ الدَّارعيـن وأبتغـي عِقال المِئِينَ في الصَّبَاحِ وفي الدَّهْمِ[١٣٤]

أراد، كما قال ابن قتيبة، أنه يأخذ بِرُؤوس الفرسان، ويأسرهم يبتغي المئات

من الإبل التي هي فداؤهم[١٣٥].

فيبدو أن الرغبة في العِوض الماليّ أقوى دافع لِلأَسْرِ، كما إن للمال دوراً ذا خطرٍ في مصير الأسير، إذ ربما رغب آسرُه في فِدائِه، وإن كان قد وَتَرَ قومه من قبل[١٣٦]، كفعل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي لما أسر بسطام بن قيس وأشار عليه قومه بقتله لأنه كان قتل منهم ثلاثةً، فاحتجَّ عتيبة بفقره وأنه (يحبّ اللّبن)، أراد أنه يريد الإبل الفدية ليشرب من لبنها، ولم يُصْغِ لتحذير قومه من أن بسطاماً، إن نجا، فسرعان ما يعود إليهم غازياً، فيذهب بمالهم وما ساق لعتيبة من فداءٍ، وأطلق سَراحَه لقاء أربعمائة بعيرٍ، أو ألفٍ وثلاثين فرساً وهودجِ أُمِّهِ. وما أسرع ما صدقت نُبُوءَةُ القوم، فقد أغار بسطام بعد إطلاقه بأيام على إبلِ عتيبةَ واستاقها، كما استاق كثيراً غيرها[١٣٧].

وقد ضربت العرب المثل بغلاء فداء كلٍّ من بَسطامٍ وحاجب بن زرارة[١٣٨]. وَرُبَّ أسيرٍ فَطِنٍ دَاهٍ، أدرك حرص آسريه الشديد على نَيْل فداءٍ غالٍ من أهليه، فأخذ يفتل لهم في الذروة والغارب، وَيُمنِّيهم أمانيَّ معسولاتٍ، وَاعداً إياهم بالعديد مِنَ الأنوق والأغنام، إلى أن سكنُوا وتراخَوْا عن شَدِّ وثاقه، حتى أمكنته فرصة، فَفَرَّ مِنْ رِبقَتِهم، وتركهم يعلكون عليه الأُرَّم[١٣٩].

وقد أقرَّ الإسلام ما ساد قبله من فداء الأسرى بمالٍ، أو مفاداتهم بأسرى لدى أقوامهم، أو المَنِّ عليهم بغير فداءٍ[١٤٠]. وبعد بدر فدى العباس بن عبدالمطلب عمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم نفسَه بمائةِ أوقيةٍ من الذَّهب، كما فدى كُلاًّ من ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمُطَّلب بأربعين أوقيةً[١٤١]. وقيل بل فدى نوفل نفسه بألفِ رُمحٍ كانت له بِجُدَّة. وكان أنكر أنه يملك مالاً فطلب منه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم أن يَفْتَدِيَ نفسَه بتلك الرِّماحِ. فَشُدِهَ لأن أحدا لم يعلم أن له بِجُدة رماحاً، وأسلم[١٤٢]. وفدى المطَّلب بن أبي وَدَاعَة أباه بأربعة آلاف درهم[١٤٣]، وكان هذا المبلغ هو فداء المشركين من أسرى بدر[١٤٤].

ولما أُسِرت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار كاتَبَها الرَّجُلان اللذان وقعت في سَهْمِهِما، وهما ثابت بن قيس بن شَمَّاس وابنُ عَمٍّ له على (تسع أواقٍ من ذهبٍ،

فسألَتْ رسول الله عليه الصلاة والسلام في كتابتها فأدَّى عنها وتزوَّجَها)[١٤٥].

أما عن مفاداة الأسير بأسير لدى العَدوّ فورد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أرسل امرأةً فَزَارية أسَرَها المسلمُون إلى أهل مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا لديهم[١٤٦]. ولما أُسِرَ أحَدُ أبناء أبي سفيان في بدر، وهو عمرو، أبى أن يَفْدِيَه. ثم عدا، بعد ذلك على شيخ مسلم اسمه سعد بن النعمان بن أكَّال فأسره، فأرسل إليه المسلمون ابنه، وأطلق الشيخَ سعداً[١٤٧].

أما من لم يك يملك مالاً، فكان النبي عليه الصلاة والسلام ربما مَنَّ عليه فأطلقه بلا فداءٍ[١٤٨]، فمثلا، بعد بَدْرٍ فَكَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن السائب ابن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة، بغير فديةٍ وكانا لا مال لهما[١٤٩]. وفي غزوة بني المصطلق (كان من السبي مَنْ مَنَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فداءٍ، ومنهم من أفدى، حتى لم تبق امرأة منهم إلاَّ رجَعَتْ إلى قومها)[١٥٠]. وقد يطلب مِن مثل هؤلاء أن يكاتِبَ الأسير على عمل يُؤدِّيه يكون عِوضاً عن الفداءِ، كما جرى مع أسرى قريش بعد بدرٍ، إذ طُلب مِنَ الأسير أن يُعلِّم عشرةً من صبيةِ المدينةِ الكِتابَةَ فإذا حذقوها كان ذلك فِداءَه، وكان أهل مكة يكتبون[١٥١].

وإذا افتدى رجل أسيراً مِنْ قومِه، فإنَّ هذا الفَعَالَ، بطبيعة الحال، مفخرةٌ للمفتدى، ومن الرِّجال مَنْ يَبْذُل النَّفيسَ من أجل تحرير أَسْرَى قومِه، ولا سيما إن كانوا مِنْ سُراتهم. وقد اسْتَزْهَدَ ضرارُ بنُ فضالة الأسدي ما قدَّمه من إبلٍ، على كثرتها، فدية لأسير أسدي يدعى حضرميَّ بن عامر، فَفنَّد زعم آسريه، بعد قبضِهم الفداءَ، بأنهم غَبَنُوه مُؤَكِّداً أنهم لم يَعْدوا أن نالوا عدداً ضئيلاً مِنَ النُّوقِ بينا تمكَّن من إطلاق سيِّدٍ كريمٍ قَمِينٍ بذلك، وشتَّان بين الشأنين:

وقالوا: غَبَّاكُمْ. فقلت: كَذَبْتُم ذهبتم بأذوادٍ، وأطْلقْتُ سَيِّداً[١٥٢]

والمقصّرون في فداء أسراهم يجعلون أنفسَهم عُرضةً للَّومِ والتَّثريبِ. وإن بلغ تقصيرهم أُذْنَيّ شاعرٍ على غير وئامٍ معهم فلن يكون غير سعيد بتقريعهم عليه، وانتقاصهم بِسَبَبِه. وقد مرّ بنا تعييرُ جريرٍ لِدَارِمٍ بوقوع رجالهم في الأَسْرِ. وَنُشِير ههنا أيضا إلى تعييره إياهم بعدم فدائهم سيِّدهم مَعْبَد بنُ زُرارة بعد أن عجزوا عن

الدفع عنه، واتهامهم بأنهم طلبوا منه الكفّ عن الاستنجاد بهم، فلن يُلْفِيَ فيهم مُنْجِدا، وأن يُسْلِم نفسَه ليد القدر، حتى أدْمتْ القيودُ جوارِحُه، واشتدَّ هُزاله وضعفه. ولا غَرْوَ في ذلك فهذا دَيْدَنُهم في التخلّي عن بني قومهم، وتركهم يعانون آلام القَيْد في الأسر:

* **قُـلْـتُـم بِـبـرقَـة رَحْـرَحَـانَ لِعَْبَـدٍ: لا تَـدْعُـنـا، وتَـرَبَّـص المِقْـدَارا**

تـركُ الـكَـبُـول جـوالـبـاً فـي مَـعْـبـدٍ والـمُـخَّ في قَصَب القَوائِم زَارَا[١٥٣]

* **تَرَكْتُمْ أبا القَعْقَاعِ في الغُلِّ مَعْبَداً وأيُّ أخٍ لم تُسْلِموا لِلأذَاهِم**[١٥٤]؟

وإذا أَطْلَقَ الآسِرُ أسِيرَه بلا فداءٍ فربما جَزَّ ناصيتَه، وهي شَعْرُ مُقدَّم رأسِهِ، وذلك عُرْفٌ من أعراف العَرَب[١٥٥]، ففي يوم (شِعْبِ جَبَلَةَ)، وكان لعامر وعبس على ذبيان، جزّت ناصيتا كل مِنْ سنان بن أبي حارثة وعمرو بن عمرو بن عُدُس[١٥٦]، وفي (يوم الوَقِيط) أُسِر ضرار بن القعقاع بن زُرَارة، فتنازع في أسْرِه رَجُلان فَجَزَّا ناصِيَتَه وأطلقاه[١٥٧]. وفي يوم (تَحْلاق الكمَم)، وهو من أيام حرب البسوس بين بكر وتغلب (أسر الحارث بن عَبَّادٍ المهلهل عدي بن ربيعة، وهو لا يعرفه، فقال: دُلَّني على عدي وأُخْلِي عنك، فقال له عدي: عليك العهدُ بذلك إنْ دَلَلْتُك عليه؟ قال: نعم. قال: أنا عدي، فَجَزَّ ناصِيَتَه، وتركه)[١٥٨].

وأسَرَ زَيْدُ الخيل الحارثَ بن ظالم المُرِّيَّ وامرأته، ثم مَنَّ عليهما، وذكر تضرع الحارث إليه وإلى قومه بأن يقبلوا منه الفِدْيَةَ ويطلقوا سراحه، وصوره خاضعاً قانعاً بأن يَجُزُّوا ناصِيَتَه:

يقول: اقْبَلوا منِّي الفِدَاءَ، وأَنعِمُوا عليَّ، وجُزُّوني مكان القوادم[١٥٩]

وشبّه بشر بن أبي خازم قلة شِعْره لتقدُّمه في السِّنِّ، بقلة شِعْر أسير جُزَّتْ ناصِيَتَه (رأت تلك المرأةُ شَعْري قليلاً كأنه أفحوص قطاة، مع أنه لم يمسه آسر يريد الإنعام عَلَيَّ ونيل الفداء فيجزُّها):

رَأَتْنِي كَأُفْحُوصِ القَطَاةِ ذُؤَابَتي وما مَسَّها من منعمٍ يَسْتَثِيبُهَا[١٦٠]

إنَّ جَزَّ ناصيةِ الأسيرِ أمارةٌ على القدرة والغَلَبة والانتصار، فلا غَرْوَ أن تباهى به

الشاعر ناطقاً بلسان قومه، رامزاً إلى تمكُّنهم من عدُوِّهم، وإذلالهم لهم، وعُلُوِّ يدهم عليهم. فالخنساء، مثلاً، تجأر بالفخر بأسْرِ قومها الفرسانَ والمَنِّ عليهم بعد جَزِّ نواصِيهِم، ولم يك يدور بِخَلَدِ أولئك الفرسان أنْ يستطِيعَ أحدٌ فِعْلَ ذلك بهم، لكن قومها فَعَلُوه:

وَخَـيْـلٍ تَـكَـدَّسُ بـالـدَّارِعـيـ ـنَ، وتَحْتَ العَجَاجَةِ يَجْمِزْنَ جَمْزَا
جَـزَزْنَـا نـواصِـيَ فُـرْسـانِـهـا وكـانـوا يَـظُـنُّـونَ أنْ لَـنْ تُجَـزَّا[١٦١]

ومما نعتت به صخراً من عشرات النعوت أنه (جَزَّازُ ناصِيَة)[١٦٢].

وربما كان في جَزِّ الناصية، كما قال جواد علي، دلالةٌ على ازدراء جازِّها بجَزُوزِها بعد تمكنه من أسْرِه، وترفُّعِه عن قَبُول فديةٍ عن رجلٍ غير ذي شَأْنٍ[١٦٣]. والظاهر أن الرغبة في تحقير الأسير المَمْنُون عليه ليستْ دائماً وراءَ جَزِّ شَعْر ناصِيَتِه، بل مجرد إشهار الغلبة والنَّصْر، كما سلف، إلى جانب تعميق إحساس الأسير المفكوك بمنّةِ الآسِرِ عليه، كما يوحي بذلك ما قاله مُحْرِز بن المُكَعْبِر الضَّبِّي (أو سنان بن ماجد التيمي)، عن أسراه، وذلك أنه أسر رجالاً من بني ذُهْل بن شيبان، فَمَنَّ عليهم وأطلقهم، لكنه، على ما يبدو، لم يَجِدْ منهم عِرْفَاناً بجميله، ولذلك دَعَا مَنْ يأسر شيبانِيِّين، ويَهِمُّ بالمَنِّ عليهم ألا يجُزَّ نواصِيَهُم، بل يَجُزُّ لِحَاهُم لأنَّ جَزَّ النواصي لم يُجْدِ، فمع نُمُوِّ شَعْرِها نَمَا نكرانُهم لِفَضْل المُتفضِّل:

أطْـلَـقْـتُ مـن شَـيْـبَـانَ سَـبْـعِـينَ عـانِـيـاً فـأَبُـوا جـمـيـعـاً كـلُّـهُـمْ لـيـسَ يَـشْـكُـرُ
إذا كُـنْـتَ فـي أَفْـنَـاءِ شَـيْـبَـانَ مُـنْـعِـماً فَـجُـزَّ الـلِّـحَـىٰ إن النَّـواصِـيَ تُـكْـفَـرُ[١٦٤]

وكانوا ربما وضعوا الشَّعر الذي يَجزُّونه في كِنانةٍ ليُخْرِجوه ويفخروا بأسْرِهم صاحِبَه وإطْلاقِهم إياه. قال الحطيئة في مدح بغيض بن شماس:

قـد نـاضـلـوكَ فَـسَـلُّـوا مـن كـنـانَـتِـهـم مَـجْـداً تَـلِـيـداً، ونَـبْـلاً غَـيْـرَ أَنْـكَـاسِ[١٦٥]

وكان الملوك وبَنُوهُم بِمَنْجَى، إذا أُسِرُوا، مِنَ التعرُّض لهذا الفعل المُذِلّ، ففي (يوم طِخْفَة)، أحد أيام العرب في الجاهلية، أَسَر طارقُ بن عميرة اليربوعي قابوسَ بن النعمان بن المنذر (وأخذه لِيجُزَّ ناصِيَتَه، فقال قابوس: إن الملوك لا تُجَزُّ نواصِيَها. فجهّزه وأرسله إلى أبيه)[١٦٦].

الخلاصة

أوحت النماذج الشعرية المدروسة من شعر الأسر بما يلي:

أولا: مفاخر ومحامد

أ ـ أسر الأعداء. فقد تكررت الإشادة به في سياق كلٍّ من الفخر والمديح. ويسترعي النظر التأكيد القوي على خطر أسر ذوي الشأن في الجماعة وعليةِ القوم من ملوكٍ، وشيوخِ قبائلَ، وسادةٍ، وفرسانٍ وقادةٍ، وذلك لعسر أسرهم لما دونه من مصاعبَ لا قِبَلَ لأحدٍ سوى أفذاذ الرجال وأبطالهم بها، ولغلاء فدائهم.

ب ـ الإحسان إلى الأسرى. وهي مفخرة كبرى تتكرر الإشادة بها، ويعظم الثناء على من يقوم بها.

جـ ـ فك الأسرى.

ثانيا: معايب وموجبات ذمّ وانتقاص

أ ـ الوقوع في الأسر. يُعَدُّ ذلك مذمة يرمى بها الخصم ويُعَيَّر، لما تومىء إليه من جبن أو خَوَر.

ب ـ إساءة معاملة الأسرى.

جـ ـ عدم القدرة على أسر العدو.

ثالثا: ممارسات ذات صلة بالأسر

أ ـ إساءة معاملة الأسير حسّيًّا ومعنويًّا.

ب ـ تصفيد الأسير بالسلاسل والأغلال.

جـ ـ فشوّ التشفّي من العدو الواقع في الأسر والتلذذ بمحنته.

د ـ قتل الأسرى. وذلك قبل الإسلام وفي سنيه الأولى، ثم اقتصرت ممارسته على شديدي الإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن عفا عنهم لجرم ارتكبوه، ثم خاسوا بالعهد وعادوا إلى الإيذاء.

هـ ـ جزُّ ناصية الأسير. وكان يستثنى من ذلك الملوك.

و ـ فداء الأسرى، أو المفاداة بهم بأسرى لدى أقوامهم، أو المنُّ عليهم بغير فداء.

الهوامش والمراجع

(١) انظر: ابن الأثير (علي بن محمد): **الكامل في التاريخ**، جـ ١، بيروت: دار صادر/ دار بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ص ٦٢٣.

(٢) البيت لمرّار بن سلامة العجلي مفتخراً بانتصار بني عجل على بني فزارة يوم ذي قار. انظر: المرزباني (محمد بن عمران): **معجم الشعراء**، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ص ٣٣٩.

(٣) انظر: الكامل، ص ٦٠٠، وأبو عبيدة(معمر بن المثنى): **نقائض جرير والفرزدق**، جـ ١، تحقيق أ. أبيقان، ليدن: برل، (١٩٠٨ ـ ١٩١٢م)، ص ٣١٥ والتي بعدها.
وفكرة وصف صَلْصَةِ أصفاد الأسير بأنها غِناءٌ تهكماً هذه غير نادرة في الشعر الجاهلي، فكل من سلامة بن جندل وبشر بن سَوَّار تحدث عن أسيره بأن (الحديد يُغَنّيه). انظر: سلامة بن جندل: **ديوان سلامة بن جندل**، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب: المكتبة العربية ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، ص ٢٥٩، والشمشاطي (عليّ بن محمد): **الأنوار ومحاسن الأشعار**، جـ ١، تحقيق محمد يوسف، الكويت: وزارة الاعلام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ١٩٤.
واستخدم هذه الفكرة أيضاً جرير بعد ذلك: (تُغَنّي ابْنَ ذي الجَدَّيْن فينا سَلاسِلُهْ). انظر: جرير بن عطية: **ديوان جرير**، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦م، ص ٩٦٨.
ونحو ذلك وصف الأسير بأنه (يُسَامِرُ السَّلاسل)، كما عبر الوليد بن يزيد(٩٠ ـ ١٢٦هـ) في شعر منسوب له يذكر فيه أسر الأمويين لخالد بن عبد الله القسري، وترك اليمنيين نصرته. انظر: الوليد بن يزيد: **شعر الوليد بن يزيد**، تحقيق حسين عطوان، عمّان: مكتبة الأقصى، ١٩٧٩م، ص ١٥٥.

(٤) الأصبهاني (علي بن الحسين): **الأغاني**، جـ ٩، القاهرة: مصور عن طبعة دار الكتب، ص ١٩، واسم المعركة (يوم الحُبَيّ).

(٥) الأغاني، ص ١٩، سَرَعانهم: أوائلهم. سَرَعان الخيل: أوائلها. تَثَقُّف الحنطل: تشقّه.

(٦) انظر مثلا: فخر رُمَيْض العَنَزِيّ بأسر قومه عَنَزَة حاتم الطائي، والحارثَ بن ظالم المري، وكعبَ بن مامَة الإيادي، وأسماء بن خارجة الفَزَاري (أو الهَذيل بن هبيرة التغلبي) في الكامل، ص ٦٢٣، والنقائض، ص ٣١٥، وفخر عياض بن مَرْثَد العامري بأسر قومه بني عامر مَعْبَد بن زرارة في (يوم رحرحان الثاني)، في الاغاني، جـ ١١، ص ١٢٧ ـ ١٣٠، وفخر عبادةَ بْنِ مَرْثَد بأسره الفارسَ الأشهر الذي أدرك الإسلام وأسلم قيسَ بْنَ عاصم المنقرى رضي الله عنه في الاغاني، جـ ١٤، ص ٨٩، وعفيف عبد الرحمن: **الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي**، بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م، ص ٥٦٤، وفخر سلمة بن قرط بن سفيح بأسر تغلب فارساً يدعى الحطم في (يوم جَوِّ عَتيك)، في الأنوار، ص ١٩٢، وفخر الأفواه الأودي بأسر قومه سادةَ أعدائهم في ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، جـ ٢، ص ٤٢٨ (دارة) والأفوه الأودي: **ديوانه** ضمن الطرائف الأدبية، صنعة عبد العزيز الميمني: (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م) ص ٢٣، وادعاء عامر بن الطفيل أنَّ قومه أسروا سادة بني لجيم يوم (غول) في عامر بن الطفيل: **ديوان عامر بن الطفيل**، بيروت: دار بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ٤٨ والتي بعدها، وتذكير مُليح الهذلي أعداء قومه بانتصارهم عليهم، وتمكنهم من أسر ملوكهم، في الحسن السكري: **شرح أشعار الهذليين** تحقيق عبد الستار فراج، القاهره: مكتبة دار العروبة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، ص ١٠٠٤، وفخر أشرس بن بشامة النهشلي بأسر قومه ضبّة مِشْوَل بن الهذيل بن زُفَر الكلابي ثم إطلاقه لقاء مائة من الإبل، في ديوان جرير ص ٦٢.

(٧) ديوان جرير، ص ٣٤١. قَصَرْنَا: قَصَرْنا خَطْوَهُ بتقييده. أُود: اسم واد جرى فيه يوم ذي طلوح قبل الإسلام بين يربوع وبكر، وأسرت فيه يربوع الحوفزان بن شريك الشيباني.

(٨) ديوان جرير، ص ٨٥٠. تبتزّ: تَستلب بِزّته وهي ما عليه من الحديد من درع ونحوه. عَجْعَاج: ضعيف ليس عنده إلاّ العجيج والصياح. الخُور: الجبناء. عوّد: جبن. وانظر أيضاً: أبيات لجرير في هذا المعنى على الصفحات: ٧٦٠ ـ ٨٨٠ ـ ٩٠٨ ـ ٩٤٧.

(٩) ديوان جرير: ص ٩٠٨. وانظر: في أسر بني يربوع لابني المنذر (والحق أن أحدهما ابن المنذر، والآخر ابن النعمان)، مثلاً، أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، جـ ١٥، القاهرة: دار الكتب الوطنية، ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م، ص ٤١٣.

(١٠) ديوان جرير، ص ٨١٠. شوازب: ضوامر.

(١١) ديوان جرير، ص ٩٨٣. ابن ذي الجَدَّين: بسطام بن قيس الشيباني.

(١٢) محمد إسماعيل الصاوي: **شرح ديوان جرير**، القاهرة: المكتبة التجارية ١٩٥٣م، ص ٥٥٦. ابن خويلد: يزيد بن الصَّعِق. أمّ الجواثم: الهامة. ابن مُحَرِّق: قابوس بن المنذر، أسره طارق اليربوعي. جار بَيْبَة: الضِّمَّة الجشمي، أسره الحارث بن بَيْبة المجاشعي. نَعْصَىٰ بالسيوف: نضرب بها كضربنا بالعصا. وانظر أيضاً: ديوان جرير، ص ٨٧٥ و٩٦٨.

(١٣) ديوان جرير، ص ٧٥٦. ذو بهدي: أحد أيام العرب قبل الإسلام.

(١٤) ديوان جرير، ص ٩٦. وانظر أيضاً: في الفخر بأسرهم الهذيل، ص ٦٣ و٢٨٦، والصاوي، شرح ديوان جرير، ص ٤٩٧.
وفي المدح بأسر الملوك ونحوهم انظر: ديوان جرير، ص ٧٤٥، حيث مدح الخليفة معاوية بن هشام بذلك، والفرزدق: **ديوان الفرزدق**، جـ ١، بيروت: دار صادر/ دار بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م ص ٢٥٤، حيث مدح ضَبَّةَ بأسر الرؤساء.

(١٥) البيت لعنترة. انظر: عنترة بن شداد، **ديوان عنترة**، تحقيق محمد سعيد مولوي، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ٣٣٢.

(١٦) البيتان لبشر بن عليق الطائي يذكّر مهجوّة عديَّ بن الرِّقاع العاملي بما صنعته طيّء بعاملة. انظر: وفاء فهمي السنديوني: **شعر طيء وأخبارها**، جـ ٢، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٣٥٧ والتي بعدها. رحتم بأعضاد المطايا: مشيتم إلى جانبها عن يمينها وشمالها. القِدّ: سيور من جلد. عضاريط الركاب: العضاريط الأجراء والتُّجّاع ونحوهم.

(١٧) الأبيات لعوف بن عطية التيمي (جاهلي). انظر: مطاع صفدي وإيليا حاوي: **موسوعة الشعر**، جـ ٤، بيروت: شركة خياط، ١٩٧٤م، ص ٤٤ والتي بعدها. هجمة: الهجمة القطعة من الإبل. أَيْصَر: الأيصَر كساء يُحْمَل فيه الحشيش، وربما كان المقصود في البيت العشب وهو من معاني الأَيْصَر. (انظر: اللسان، أ ص ر).

(١٨) البيت لامرىء القيس بن عمرو السّكوني في انتصار قومه على تميم. انظر: يحيى الجبوري: **«قصائد جاهلية نادرة»**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص ١٥١.
واستخدم هذا التقسيم في العصر الأموي كل من الفرزدق: ديوان الفرزدق، جـ ٢، ص ٢٩، وذي الرمّة: **ديوان ذي الرمّة**، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م، ص ١٣٨٨.

(١٩) الحسين بن مفضل الأصفهاني: **مجمع البلاغة**، تحقيق عمر الساريسي، عمان: مكتبة الأقصى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٤٦١.

(٢٠) البيتان لمالك بن نويرة، انظر: الأخفش الأصغر: **الاختيارين**، تحقيق فخر الدين قباوة، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ٤٥، الإياد: موضع.

(٢١) البيت للنعمان بن زرعة التيمي. انظر: **الأنوار**، ص ١٧٦.

(٢٢) لويس شيخو: **شعراء النصرانية**، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٦م، ص ٨١٠.

(٢٣) البيتان لقرّة بن عاصم. انظر: ديوان جرير، ص ١٢٤، ونهاية الأرب، ص ٣٨٤. مكفَّر: من كَفَرَ في السلاح والحديد إذا دخل فيه.

(٢٤) هو عجز بيت لعامر بن الطفيل، وصدره (قتلنا منهم مائةً بشيخ)، انظر: عامر بن الطفيل، **ديوان عامر بن الطفيل**، دار بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص ١١٢.

(٢٥) البيت لأوس بن مَغْرَاء. انظر: الأغاني، جـ ١٦، ص ٣٣٨.

(٢٦) الأبيات لعباس بن مرداس السلمي: **ديوان عباس بن مرداس السلمي**، تحقيق يحيى الجبوري، بغداد: وزارة الثقافة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٣٦ والتي تليها. فُخُّوا: الفخّ أن ينام الرجل وينفخ في نومه. الميقاب: الواسعة الفرج.

(٢٧) الميداني (أحمد بن محمد): **مجمع الأمثال**، جـ ٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ص ٦٦، والزمخشري (محمود بن عمر): **المستقصى**، جـ ١، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢م، ص ٧٦، والأغاني، ص ٣٤٦.

(٢٨) انظر: أبو عبيد البكري: **سمط اللآلي**، جـ ١، تحقيق عبد العزيز الميمني، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، ص ١٨٠.

(٢٩) انظر: سمط اللآلي، ص ١٨٠، وانظر: خبراً آخر عن رده أميراً آخر كان على المدينة، وخالا لأحد الخلفاء، لشدّة بياضه وحسب، في الكامل، جـ ٢، ص ٤٩.

(٣٠) ديوان جرير، ص ٨٨١. القلحاء: مؤنث (الأقلح) وهو مَنْ بأسنانه (قَلَحٌ) وهو صفرة تعلو الأسنان. واعتاد جرير وصف دارم به. انظر: ديوان جرير، ص ٤٨٥، وانظر: الرابع من هذه الأبيات.

(٣١) ديوان جرير، ص ٩٧٠. وانظر: خير أسر حاجب في نهاية الأرب، ص ٣٥٢ مثلاً.

(٣٢) ديوان جرير، ص ٤٨٥، مَخْمُوساً: المخموس: الحبل المفتول على خمس قوى.

(٣٣) ديوان جرير، ص ٥٦٩، ونهاية الأرب، ص ٣٥٣.

(٣٤) ديوان جرير، ص ١٠٠٦. الأداهم: القيود.

(٣٥) ديوان جرير، ص ٤٧٨. يضرب المثل في الذلة بالفقع، وهم ضرب من الكَمْأة، في القاع فيقال: «أَذَلُّ من فَقْعٍ بِقَرْقَرٍ» و «أذلّ من فَقْعٍ بِقَاعٍ».

(٣٦) ديوان جرير، ص ٨٥٧.

(٣٧) أشار إلى استخدام القيد والسلسلة عتيبة بن الحارث بن شهاب في وصف أسيره الفارس بسطام بن قيس في بيت سبق في صدر هذا البحث صدره: (قاظ الشَّرَبَّةَ في قيدٍ وسِلْسِلَةٍ).

(٣٨) انظر: الأسر والسجن، ص ٢٨.

(٣٩) البيت لِرُمَيض العَنَزِي مفتخراً بأسر عَنَزَةَ قبيلتِهِ حاتِماً. انظر: الكامل، جـ ١، ص ٦٠٦.

(٤٠) البيت لأشوس النهشلي. ابن الهُذَيْل: مِشْوَلُ بن الهُذَيْل، أَسَرَتْهُ ضَبَّةُ ثم أطلقته لقاء مائة من الإبل.

(٤١) ذكر هذا البيت فيما سبق، ووُثِّق في التهميشة (٢٣) فلتراجع.

(٤٢) البيت لجرير. انظر: ديوان جرير، ص ٧٦٠.

(٤٣) البيت له أيضاً، يريد أسير قومه الهُذَيْلَ بن هُبَيْرَةَ التَّغْلِبي، وغايته من ذلك إغاظة الأخطل. انظر: شرح ديوان جرير، ص ٤٩٧. ضَغَا: استنجد متألّماً. والضُّغَاءُ صوت الذّليل المقهور. ضَبِيح الجلد: محترق الجلد من الجراح.

(٤٤) البيت له أيضاً. انظر: ديوان جرير، ص ٩٦.

(٤٥) ومن ذلك مما لم نورده أبيات لكل من الفرزدق (ديوان الفرزدق، جـ ٢، ٨٩ و١٦٢)، وجرير، (ديوان جرير، ص ٧٤٥ و٧٦٥).

(٤٦) البيتان لحسّان بن ثابت. انظر: حسّان بن ثابت: **ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري**، جـ ١، تحقيق وليد عرفات، بيروت: دار صادر، ١٩٧١م، ص ٧١. رَاثَ: أبطأ. إِقْفَعَلَّتْ: تَقَفَّعَتْ ويبست.

(٤٧) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣٩٤.

(٤٨) أبو تمام حبيب بن أوس الطائي: **الوحشيات**، تحقيق عبد العزيز الميمني، القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ١٠٣.

(٤٩) أعشى همدان (عبد الرحمن بن الحارث): **ديوان أعشى همدان وأخباره**، تحقيق حسن أبي ياسين، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٣٩ والتي تليها.

(٥٠) انظر: الأغاني، جـ ١١، ص ١٣٠، والأسر والسجن، ص ٣٢.

(٥١) انظر: شرح أشعار الهذليين، ص ٣٩٤ والتي بعدها. ترتمّ: تأكل الرمم.

(٥٢) الأغاني، ص ١١٠، وابن سعيد الأندلسي (علي بن موسى) **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، تحقيق نصرت عبد الرحمن، عمان: مكتبة الأقصى، ١٩٨٢م، ص ٥٦٠.

(٥٣) انظر: الأغاني، ص ١٣٠. أُضَاخ: موضع فيه قرية قديمة أُحْيِيَتْ حديثاً تقع في جنوب عربي القصيم. واسم الشاعر عباس بن يزيد الكندي.

(٥٤) انظر: الكامل، جـ ١، ص ٦٢٤.

(٥٥) انظر: شرح أشعار الهذليين، ص ٨٦٦.

(٥٦) انظر: الأغاني، جـ ٢٤، ص ٢٩، (قتلنا منهُمُ مائتين صَبْراً).

(٥٧) شرح أشعار الهذليين، ٥٨٩ ـ ٥٩١. سُلْكَىٰ: أي قضيةٌ سُلْكَى أي متفق عليها.

(٥٨) انظر: الكامل، ص ٥٢٥. وقيل إن فاعل ذلك هو عمرو بن هند. انظر: الكامل، ص ٥٢٥.

(٥٩) انظر: الأنوار، ص ٢٢٤ والتي تليها.

(٦٠) انظر: الكامل، ص ٥٢٥.

(٦١) انظر: الكامل، ص ٥٥٥، ومجمع الأمثال، جـ ١، ص ٩.

(٦٢) وانظر أيضاً: الأسر والسجن، ص ٣٤ وما بعدها.

(٦٣) انظر: جواد علي: **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، جـ ٥، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، ص ٤٦٧.

(٦٤) البصري (علي بن أبي الفرج): الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، جـ ١، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٤م، ص ٦٠.

(٦٥) **الأغاني**، جـ ١٧، ص ٢٦١، جنيباً: منقاداً طائعاً. النّواجي: جمع الناجية وهي الناقة السريعة. الرّواسم: كالنواجي. المتضاجم: المُعْوَجّ.

(٦٦) انظر: الأغاني، جـ ١٨، ص ١٨٢.

(٦٧) انظر: الأغاني، ص ١٨٢.

(٦٨) النقائض، ص ٢٠.

(٦٩) انظر: النقائض، ص ٢٠.

(٧٠) انظر: أحمد محمد الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص ٢٦٦.

(٧١) وانظر: وهبه الزّحيلي: **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٤٤٠.

(٧٢) وقد قتلهما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد بدر لإيذائهما إياه، وكثرة هجائهما الإسلام وأهله. انظر: ابن هشام (عبد الملك): **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، جـ ٢، القاهرة: مكتبة الحلبي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، ص ٢٩٨. والواقدي (محمد بن عمر): **المغازي**، تحقيق مارسدن جونز، لندن اكسفورد بنفيرستي برس، ١٩٦٦م، ص ١٠٦ والتي بعدها.

(٧٣) المغازي، ص ٨٥٧، ونهاية الأرب، جـ ١٧، ص ٣٠٩.

(٧٤) المغازي، ص ٤٠٨، ونهاية الأرب، ص ٣٠٩.

(٧٥) انظر: المغازي، ص ٨٥٩ والتي بعدها ونهاية الأرب، ص ٣٠٩.
(٧٦) انظر: السيرة، ص ٣٠٩ و٣١٢، والمغازي، ص ٨٥٨ والتي بعدها.
(٧٧) انظر: المغازي، ص ٨٨١، ونهاية الأرب، ص ٣١٦ و٣١٩ و٣٢١.
(٧٨) نهاية الأرب، جـ ٧، ص ٣٢١ والتي بعدها. وانظر: خبرٌ هناك آخر يذكر فيه خالد رضي الله عنه سبباً لقتله أسيراً. وانظر أيضاً: المغازي، ص ٨٨٢.
(٧٩) انظر: السيرة، ص ٢٩٩، والمغازي، ص ١١٩، ونهاية الأرب جـ ١٧، ص ٥٤.
(٨٠) انظر: السيرة، جـ ٤، ص ٢٨٧ والتي بعدها.
(٨١) انظر: السيرة، جـ ٢، ص ٣٠٠. وفي المغازي، ص ١١٩ خبر معزوّ لأبي العاص بن الربيع روى فيه أنّ ذلك جرى له هو.
(٨٢) الآية ٨ من سورة الإنسان.
(٨٣) انظر: السّيرة، ص ٣٠٤ والمغازي، ص ١٠٧.
(٨٤) انظر: المغازي، ص ٩٧٥، ونهاية الأرب، ص ٣٤٩.
(٨٥) انظر: البخاري (محمد بن إسماعيل): **صحيح البخاري**، تحقيق مصطفى أديب البغاد، جـ ٢، دمشق: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٨٥٣، الحديثان ٢٢٩٠ و٢٢٩١.
(٨٦) شرح أشعار الهذليين، ص ١٢٢٢، آبَكَ: وَجَدَك. «أي لكنت ثاوياً قتيلاً بالجِزّع تَمُرُّ الظباء بك، ولا تخشى تعرُّضَكَ لها لأنك ميت. والجزع: منعطف الوادي. النواهل: التي في طريقها لترد المنهل. قَرَنُ الظهر: قَرَنُ اليدين إلى الظهر. أي كان في تكتيفه ما يشغله ويحول بينه وبين مقاتلتك».
(٨٧) انظر: النقائض، ص ٣٨٣ والتي بعدها، وديوان الفرزدق، ص ١٥٧. وانظر عن حكم قتل الأسرى لدى مختلف المذاهب الإسلامية، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٤١٨ ـ ٤٤١.
(٨٨) نشوة الطرب، ص ٥٣٣.
(٨٩) انظر: نشوة الطرب، ص ٥٣٣.
(٩٠) المستقصى، ص ٥٣.
(٩١) انظر: المستقصى، ص ٥٣.
(٩٢) البيت لامرىء القيس. انظر: امرؤ القيس بن حجر: **ديوان امرىء القيس**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨، ص ٩٠.
(٩٣) البيت للبيد. انظر: الطوسي وآخرون: **شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، تحقيق إحسان عباس، الكويت: وزارة الإعلام، ١٩٨٤م، طبعة ثانية مصورة، ص ٢٥١.
سَوَامه: السَّوَام، بالفتح، السائمة، أي الماشية. ولا أرى المراد ما ذكره الشارح (ص ٢٥٢) من أنه مصدر من المساومة. قال عامر بن الطفيل:

أَسَرْنَا حَاجِباً فَثَوَى أَسِيراً ولم نَتْرُكْ لأُسْرَتِهِ سَوَامَا

ديوان عامر بن الطفيل، ص ١١٣.
(٩٤) البيت له أيضاً، انظر: شرح ديوان لبيد، ص ٩.
(٩٥) الأنوار، ص ١٦٩.
(٩٦) انظر: الأنوار، ص ١٧٠ ـ ١٧٣. في جناح عقاب: كناية عن شدّة القلق والضيق.
(٩٧) انظر: الأنوار، ص ١٥٧ ـ ١٥٩.
(٩٨) انظر: الأنوار، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٩٩) البيت لدريد بن الصّمة، انظر: دريد بن الصّمة: **ديوان دريد بن الصّمة الجشمي**، تحقيق محمد خير البقاعي، دمشق: دار قتيبة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٩٦.
(١٠٠) البيت لدريد أيضاً، انظر: ديوان دريد بن الصمّة، ص ١٠١.
(١٠١) البيت لتميم بن مقبل. انظر: تميم بن مقبل: **ديوان ابن مقبل** تحقيق عزة حسن، دمشق: وزارة

الثقافة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ٢٤٢.

(١٠٢) البيت لكعب بن مالك الأنصاري. انظر: كعب بن مالك الأنصاري: **ديوان كعب بن مالك الأنصاري**، تحقيق سامي مكي العاني، بغداد: مكتبة المعارف، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ٢٩٢.

(١٠٣) ديوان حسان بن ثابت، ص ٧١. يوازعه: وقيل: يوارعه، بالراء المهملة: يمنعه ويكفّه أو يكالمه. اقْفَعَلّت: جَفَّت ويبست.

(١٠٤) انظر: محمد بن حبيب: **المحبَّر**، تحقيق إ.ل. شْتَيتَر، نسخة مصورة، بيروت: د. ت، ص ١٤١.

(١٠٥) انظر: المحبر، ص ١٤١، والمبرد (محمد بن يزيد): **الكامل**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٢، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٨١م، ص ٨٤ و٨٥.

(١٠٦) ديوان الفرزدق، ص ٣٧٩. عقال: عِقَال بن محمد بن سفيان المجاشعي، أحد أجداد الفرزدق.

(١٠٧) ديوان الفرزدق، جـ٢، ص ٣٥٩. غلام: يعني ابنه. المستجار بقبره: يريد غالباً أباه.

(١٠٨) أوس بن حجر: **ديوان أوس بن حجر**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت: دار صادر/ دار بيروت، ١٩٦٠م، ص ١٢٥.

(١٠٩) أحمد بن يحيى (ثعلب): **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، القاهرة: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م، ص ٥٢، وهبة الله بن علي الشجري: **الحماسة الشجرية**، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٠م، جـ١، ص ٣٤٩.

(١١٠) شرح ديوان زهير، ص ٢٣٢.

(١١١) تأبّط شرّاً: **ديوان تأبّط شرّاً وأخباره**، تحقيق علي ذو الفقار شاكر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٧٢.

(١١٢) انظر: الأعشى (ميمون بن قيس): **ديوان الأعشى الكبير**، تحقيق م. محمد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٥٠م، ص ٩.

(١١٣) انظر: الأبيات في ديوان الأعشى، ص ١٠٩ و١١١.

(١١٤) انظر: إيليا سليم الحاوي: **شرح ديوان الأخطل التغلبي**، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٨م، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١. دَخَلّ: ملجأ. زَحَل: هَرَب.

(١١٥) الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية): **ديوان الخنساء**، بيروت: دار بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٤٩ و٧٥.

(١١٦) ديوان الخنساء، ص ٨.

(١١٧) ديوان الخنساء، ص ٩٢.

(١١٨) ديوان الخنساء، ص ١٤.

(١١٩) ديوان الخنساء، ص ٤٥. الغلق: الذي لم يُفْدَ.

(١٢٠) الفارس المرثي هو بسطام بن قيس. والشعر لأمه، انظر: الكامل، ص ٦١٥.

(١٢١) انظر: الكامل، جـ١، ص ٦٣٠ ـ ٦٣١. الباذين: جـ الباذي اسم فاعل من «بَذَا» الرجل أي فحش وساء خلقه.

(١٢٢) انظر: الأبيات والخبر في الكامل، ص ٦٠٠ والتي تليها.

(١٢٣) انظر: الكامل، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٦، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٨٦.

(١٢٤) انظر: يحيى بن مدرك الطائي: **ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره**، تحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة: مكتبة وهبه، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص ١٨٧ ـ ١٩٣. ولحاتم أيضاً شعر آخر قاله كذلك في أسارى من قومه كانوا عند بعض الملوك فلما سمع الشعر وهبهم له جميعاً. ديوان شعر حاتم، ص ٢٠٦ والتي تليها.

(١٢٥) انظر: الأبيات والخبر في عمرو بن بحر الجاحظ: **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، جـ٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٥م، ص ٣١٨.و **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون،

جـ٣، القاهرة: مكتبة بابي الحلبي، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م، ص ٧٠ وديوان سلامة بن جندل، ص ٢٠٤.
وللمزيد من أخبار الأسرى الذين شفع فيهم شعراء فَشُفِّعوا، انظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٢٦٨ والتي بعدها.

(١٢٦) انظر: المفصل، ص ٤٦٧ و٦٣١.
(١٢٧) المفصل، ص ٦٣٢.
(١٢٨) انظر: المفصل، ص ٦٣٢.
(١٢٩) انظر: النقائض، ص ٣١٦.
(١٣٠) انظر: الأنوار، ص ١٧٠. وقيل أيضاً إنّ فداء بسطام بن قيس الذي دفعه لعتيبة بن الحارث بن شهاب كان ألف بعير وثلاثين فرساً. كما سيأتي. وانظر: الكامل، ص ٦٠٠.
(١٣١) انظر: نهاية الأرب، جـ١٥، ص ٣٧٧. والأسر والسجن، ص ٣٨.
(١٣٢) انظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٢٧٠.
(١٣٣) انظر: نهاية الأرب، ص ٣٧٧. والأسر والسجن، ص ٣٩، ح ١.
(١٣٤) عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **كتاب المعاني الكبير**، تحقيق F. Kronkow، حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية ١٣٦٨هـ/ص ١٠٢٧. أعانق: عانق الفارسُ الفارسَ: أدنى رأسه من رأسه. وقد مضى آنفاً أن من كان فداؤه مائة ناقة لو أسر يقال له «قَيْدُ مائة» و«عِقَالُ مائة». الدَّهْم: العدد الكبير من الرجال.
(١٣٥) انظر: كتاب المعاني الكبير، ص ١٠٢٧.
(١٣٦) انظر أيضاً: الأسر والسجن، ص ٣٩.
(١٣٧) انظر: الكامل، ص ٥٩٩ والتي بعدها.
(١٣٨) كقيس بن العيزارة الهذلي، الذي أسرته فهم، وكانوا مزمعين قتله لهجائه إياهم، فخدعهم بمثل تلك الوعود حتى أمكنته النجاة بنفسه، وقد صوّر خَدْعَهُ لهم تصويراً دقيقاً فيه سخرية بهم لاذعة إذ وازن بينهم وبين بقر جُلْح لا قُرُونَ لها استطابت مرعى خصيباً فسكنت ترعاه. ووصف كيف كان يكيل لهم الوعود التي سال لها لعابهم، فظلوا يشترطون عليه المزيد من الشروط وهو يقبل ما يشترطون دون أن يشير ذلك لديهم، لطمعهم، ارتياباً في صدقه. انظر: الأبيات في شرح أشعار الهذليين، ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠.
(١٣٩) انظر: المستقصى، ص ١٦٣، وحمزة الأصفهاني: **الدُّرَّة الفاخرة**، تحقيق عبد المجيد قطامش، جـ١، القاهرة: دار المعارف، ٩٦٦ م، ص ٣١٥.
(١٤٠) انظر: حول شيوع هذه الخيارات الثلاثة قبل الإسلام، المفصل، ص ٦٣١ والتي بعدها.
(١٤١) انظر: نهاية الأرب، جـ١٧، ص ٥٥.
(١٤٢) انظر: نهاية الأرب، ص ٥٦.
(١٤٣) نهاية الأرب، ص ٥٦.
(١٤٤) انظر: السيرة النّبوية، ص ٣٠٦.
(١٤٥) انظر: المغازي، ص ٤١١، ونهاية الأرب، ص ١٦٥.
(١٤٦) انظر: الإمام مسلم بن الحجاج: **صحيح مسلم**، بشرح يحيى بن شرف النووي، جـ٢، القاهرة: المطبعة المصرية، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، ص ٦٧ و٦٨، ونهاية الأرب، ص ٢٧١.
(١٤٧) انظر: نهاية الأرب، ص ٥٦ ـ ٥٧.
(١٤٨) انظر: السيرة النبوية، ص ٣٠٦.
(١٤٩) انظر: المغازي، ص ١٣٨.
(١٥٠) انظر: المغازي، ص ٤١٢، ونهاية الأرب، ص ١٦٥.

(١٥١) انظر: نهاية الأرب، ص ٥٦.
(١٥٢) انظر: الوحشيات، ص ١٣.
(١٥٣) ديوان جرير، ص ٥٢٣. المقدار: القدر. جوالب: قروح جافة. رار: مخّ رقيق.
(١٥٤) ديوان جرير، ص ١٠٠٦. الأداهم: كناية عن القيود.
(١٥٥) انظر: نهاية الأرب، جـ٣، ص ١٢٢. والحطيئة (جرول بن أوس): **ديوان الحطيئة**، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة: شركة الحلبي، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص ٢٩٣. وانظر أيضاً: نشوة الطرب، ص ٧٩٢، والحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٢٦٦ والتي بعدها.
(١٥٦) انظر: نهاية الأرب، جـ١٥، ص ٣٥٢.
(١٥٧) انظر: نهاية الأرب، ص ٣٨٠.
(١٥٨) نهاية الأرب، ص ٤٠٤.
وانظر أيضاً: أخباراً عن جزّ ناصية الأسير في المغازي، ص ٥١٨ والتي بعدها، والكامل، ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧، والأغاني، جـ١٤، ص ١٣، وجـ ١٦، ص ٦٨ ـ ٧١، وجـ١٧، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٣، ومحمد بن حبيب: **أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام**، ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، جـ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص ١٣٩، والمستقصى، ص ٢ ـ ٣.
(١٥٩) **الأغاني**، جـ١٧ ص ٢٦١.
(١٦٠) بشر بن أبي خازم: **ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي**، تحقيق عزة حسن، دمشق: وزارة الثقافة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ١٥.
(١٦١) الخنساء (تماضر بنت عمرو السلمية): **ديوان الخنساء**، تحقيق أنور عليان أبو سويلم، عمان: دار عمار، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ٢٧٦ والتي تليها.
(١٦٢) ديوان الخنساء، تحقيق أنور أبو سويلم، ص ٣٩٢.
(١٦٣) انظر: المفصل، جـ٤، ص ٥٩٩.
(١٦٤) انظر: النقائض، ص ٢٣٦.
(١٦٥) ديوان الحطيئة، ص ٢٨٤. قال الشارح إنّ «المجد التليد» في البيت هو «نواصي الفرسان التي كان يمن عليهم». انظر: ديوان الحطيئة، ص ٢٩٢. وانظر: نهاية الأرب، جـ٣، ص ١٢٢.
(١٦٦) انظر: نهاية الأرب، جـ١٥، ص ٤١٣.

* * *

نموذج كمي لتحديد إمكانات نمو المستوطنات الريفية في المملكة العربية السعودية، إقليم بقيق ـ دراسة تطبيقية.

أحمد جار الله الجار الله